

صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر ماذا تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء» وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ترغيب وترهيب أن حسابه وعقابه سريع فيمن عصاه وخالف رسله ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لمن والاه واتبع رسله فيما جاؤوا به من خير وطلب. وكثيراً ما يقرن الله في القرآن بين هاتين الصفتين كقوله ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: 6] وقوله: ﴿يَتَّقِ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الحجر: 49، 50] فتارة يدعو عباده إليه بالرغبة وصفة الجنة والترغيب فيما لديه، وتارة يدعوهم إليه بالرهبة وذكر النار وأنكالها وعذابها والقيامة وأهوالها، وتارة بهما لينجع في كل بحسبه، جعلنا الله ممن أطاعه فيما أمر، وترك ما نهى عنه وزجر، وصدقه فيما أخبر، إنه قريب مجيب، سميع الدعاء، جواد كريم وهاب. روى الإمام أحمد عن أبي هريرة مرفوعاً أن رسول الله ﷺ قال: «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط أحد من الجنة، خلق الله مائة رحمة فوضع واحدة بين خلقه يتراحمون بها، وعند الله تسعة وتسعون» ورواه الترمذي.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْمَصَّ ١﴾.

قد تقدم الكلام في أول سورة البقرة على ما يتعلق بالحروف.

﴿كِتَابٌ أَنْزَلُ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ٢.

﴿كِتَابٌ أَنْزَلُ إِلَيْكَ﴾ أي هذا كتاب أنزل إليك، أي من ربك ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ شك منه، أو لا تتحرج به في إبلاغه والانداز به ﴿لِتُنذِرَ بِهِ﴾ أي أنزلناه إليك لتنذر به الكافرين ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ ٣.

﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي اقتفوا آثار النبي الأمي الذي جاءكم بكتاب أنزل إليكم من رب كل شيء ومليكه ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي لا تخرجوا عما جاءكم به الرسول إلى غيره فتكونوا قد عدلتم عن حكم الله إلى حكم غيره ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ كقوله: ﴿وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: 103].

﴿وَكَمْ مِنْ قَرِيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ ٤ .

﴿وَكَمْ مِنْ قَرِيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ أي بمخالفة رسلنا وتكذيبهم فأعقبهم ذلك خزي الدنيا موصولاً بذل الآخرة. ﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ أي فكان منهم من جاءه أمر الله وبأسه ونقمته بيّناً، أي ليلاً، أو هم قائلون من القبلولة، وهي الاستراحة وسط النهار، وكلا الوقتين وقت غفلة ولهو.

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ٥ .

أي فما كان قولهم عند مجيء العذاب إلا أن اعترفوا بذنوبهم، وأنهم حقيقون بهذا، وفي الحديث عن عبد الملك بن ميسرة الزراد قال: قال عبد الله بن مسعود: قال رسول الله ﷺ: «ما هلك قوم حتى يعذروا من أنفسهم» قال: قلت لعبد الملك: كيف يكون ذاك قال: فقرأ هذه الآية ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ٥ .

﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ ٦ .

﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ...﴾ كقوله ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ ١٥ [الفصل: 65] فيسأل الله الأمم يوم القيامة عما أجابوا رسله فيما أرسلهم به، ويسأل الرسل أيضاً عن إبلاغ رسالته، وفي الحديث «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام يسأل عن رعيته، والرجل يسأل عن أهله، والمرأة تسأل عن بيت زوجها، والعبد يسأل عن مال سيده».

﴿فَلَنَقْضَنَّ عَنْهُمْ بِعَازٍ وَمَا كُنَّا غَافِينَ﴾ ٧ .

﴿فَلَنَقْضَنَّ عَنْهُمْ...﴾ يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون ﴿وَمَا كُنَّا غَافِينَ﴾ يعني أنه تعالى يخبر عباده يوم القيامة بما قالوا وبما عملوا من قليل وكثير وجليل وحقير، لأنه تعالى الشهيد على كل شيء، لا يغيب عنه شيء، ولا يغفل عن شيء، بل هو العالم بخائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: 59].

﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ

فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ ٩ .

﴿وَالْوَزْنُ﴾ أي للأعمال يوم القيامة ﴿الْحَقُّ﴾ أي لا يظلم تعالى أحداً، كقوله ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِكُلِّ شَيْءٍ فَلَا تَرْوِيهِمْ تَنَاسُ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ ١٧ [الأنبياء: 47] وقال ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ شَيْئاً وَلَاحِقٌ لَهُ دَرَجَاتٌ وَإِنَّ تِلْكَ حَسَنَةً يُصْنَعُهَا وَيُوْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيماً﴾ ١٨ [النساء: 40] والذي يوضع في الميزان يوم القيامة، قيل: الأعمال، وإن كانت أسراضاً إلا أن الله يقبلها يوم القيامة أجساداً، كما جاء في الصحيح من أن البقرة وآل عمران يأتيان

يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيابتان أو فرقان من طير صواف» ومن ذلك في الصحيح قصة القرآن، وأنه يأتي صاحبه في صورة شاب شاحب اللون، فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا القرآن الذي أسهرت ليلك، وأظلمات نهارك. وقيل: يوزن كتاب الأعمال كما جاء في حديث البطاقة في الرجل الذي يؤتى به ويوضع في كفه تسعة وتسعون سجلاً، كل سجل مد البصر، ثم يؤتى بتلك البطاقة، فيها «لا إله إلا الله» فيقول: يا رب وما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول الله تعالى: إنك لا تظلم فتوضع تلك البطاقة في كفة الميزان، قال رسول الله ﷺ: «فطاشت السجلات وثقلت البطاقة» رواه الترمذي، وقيل: يوزن صاحب العمل كما في الحديث «يؤتى يوم القيامة بالرجل السمين، فلا يزن عند الله جناح بعوضة» ثم قرأ ﴿فَلَا تَقِيْمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: 105] وفي مناقب عبد الله بن مسعود أن النبي ﷺ قال: «أتعجبون من دقة ساقيه؟ والذي نفسي بيده لهما في الميزان أنقل من أحد» وقد يمكن الجمع بين هذه الآثار بأن يكون ذلك كله صحيحاً، فتارة توزن الأعمال، وتارة توزن محالها، وتارة يوزن فاعلها. والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعْيِشًا قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

يقول تعالى ممتناً على عبده فيما مكن لهم من أنه جعل الأرض قراراً، وجعل فيها رواسي وأنهاراً، وجعل لهم فيها منازل وبيوتاً، وأباح لهم منافعها، وسخر لهم السحاب لإخراج أرزاقهم منها، وجعل لهم فيها معاش، أي مكاسب وأسباباً يكسبون بها، ويتجرون فيها، ويتسببون أنواع الأسباب. وأكثرهم مع هذا قليل الشكر على ذلك كقوله ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: 34].

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾.

ينبه تعالى بني آدم في هذا المقام على شرف أبيهم، ويبين لهم عداوة عدوهم إبليس وما هو منوط عليه من الحسد لهم ولأبيهم آدم ليحذروه، ولا يتبعوا طرائقه فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ وذلك أنه تعالى لما خلق آدم ﷺ بيده من طين لازب، وصوره بشراً سوياً، ونفخ فيه من روحه أمر الملائكة بالسجود له تعظيماً لشأن الله تعالى وجلاله فسمعوا كلهم، وأطاعوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين. وعن ابن عباس أنهم خلقوا في أصلاب الرجال، وصوروا في أرحام النساء.

﴿قَالَ مَا مَنَّكَ عَلَىَّ أَنْ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾.

قال بعض النحاة: ﴿لَا﴾ هنا في ﴿أَلَا تَسْجُدُ﴾ زائدة وقال بعضهم زيدت لتأكيد الجحد. وقول إبليس لعنه الله ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ من العذر الذي هو أكبر من الذنب، كأنه امتنع من الطاعة، لأنه لا يؤمر

الفاضل بالسجود للمفضول، يعني لعنه الله: وأنا خير منه، فكيف تأمرني بالسجود له؟ ثم بين أنه خير منه بأنه خلق من نار، والنار أشرف مما خلقته منه وهو الطين، فنظر اللعين إلى أصل العنصر، ولم ينظر إلى التشريف العظيم، وهو أن الله خلق آدم بيده، ونفخ فيه من روحه، وقاس قياساً فاسداً في مقابلة نص ﴿فَقَعُوا لَهُمْ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: 29] فشذ من بين الملائكة لترك السجود.

﴿قَالَ فَأَهِيطَ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ (١٣).

يقول تعالى مخاطباً لإبليس بأمر قدرتي كوني ﴿فَأَهِيطَ مِنْهَا﴾ أي بسبب عصيانك لأمري، وخروجك عن طاعتي، فما يكون لك أن تتكبر فيها، أي في الجنة، أو في المنزل التي هو فيها من الملكوت الأعلى ﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ أي الدليلين الحقييرين، معاملة له بنقيض قصده، ومكافأة لمراده بضده.

﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (١٤).

فعند ذلك استدرك اللعين وسأل النظرة إلى يوم الدين ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (١٥).

﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ (١٥).

أجابه تعالى إلى ما سألته، لما له في ذلك من الحكمة والإرادة والمشية التي لا تخالف، ولا تمانع، ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب.

﴿قَالَ فِيمَا آغَاوَيْتِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (١٦).

خبر تعالى أنه لما أنظر إبليس ﴿إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ واستوثق بذلك أخذ في المعاندة والتمرد فقال: ﴿فِيمَا آغَاوَيْتِي...﴾ أي كما أغويتني، أي كما أضللتني، أو أهلكتني لأقعدن لعبادك الذين تخلقهم من ذرية هذا الذي أبعدتني بسببه على ﴿صِرَاطِكَ الْمُسْتَقِيمِ﴾ أي طريق الحق، وسبيل النجاة، ولأضلنهم عنها لثلاثي يبعثوك، ولا يوحدوك بسبب إضلالك إياي، وقال بعض النحاة: الباء هنا قسمية، كأنه يقول: فباغوائك إياي لأقعدن لهم صراطك المستقيم. وقال محمد بن عون بن عبد الله: يعني طريق مكة، والصحيح أن الصراط المستقيم أعم من ذلك لما روى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ يقول: «إن الشيطان قعد لابن آدم بطرقه، قعد له بطريق الإسلام فقال: أتسلم وتذر دينك ودين آبائك؟ قال: فعصاه وأسلم» قال: «وقعد له بطريق الهجرة، فقال: أتهاجر وتدع أرضك وسماءك؟ وإنما مثل المهاجر كالفرس في الطول فعصاه وهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد، وهو جهاد النفس والمال، فقال: تقاتل فتقتل، فتتكح المرأة، ويقسم المال؟ قال: فعصاه وجاهد» قال رسول الله ﷺ: «فمن فعل ذلك منهم فمات كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، وإن قتل كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، وإن غرق كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، أو وقصته دابة كان حقاً على الله أن يدخله الجنة».

﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا يَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ .
 ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ أي أشككهم في آخرتهم ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أرغبهم في دنياهم ﴿وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ﴾ أشبه عليهم أمر دينهم ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ أشهي لهم المعاصي . قال ابن عباس : لم يقل : من فوقهم ، لأن الرحمة تنزل من فوقهم ﴿وَلَا يَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ موحدين ، وقول إبليس هذا إنما هو ظن منه وتوهم ، وقد وافق في هذا الواقع كما قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ وَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ وَمَنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ ﴿سبا : 20﴾ ،
 [21] ولهذا ورد في الحديث الاستعاذة من تسلط الشيطان على الإنسان من جهاته كلها فقد روى البزار عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يدعو : «اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي ، اللهم استر عوراتي ، وآمن روعاتي واحفظني من بين يدي ومن خلفي ، وعن يميني وعن شمالي ، ومن فوقي ، وأعوذ بك اللهم أن أغتال من تحتي» .

﴿قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَذْمُورًا لَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾ .
 أكد تعالى على إبليس اللعنة والطرده والابعاد والنفي عن محل الملاء الأعلى بقوله : ﴿أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَذْمُورًا﴾ المذموم : المعيب والذم العيب . والمدحور : المقصي ، وهو المبعد المطرود . وقوله ﴿لَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ كقوله : ﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء : 63] .

﴿وَبَنَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٠﴾﴾ .
 فَوَسَّسَ لَكُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَكُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِيهُمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢١﴾﴾ .

يذكر تعالى أنه أباح لآدم ﷺ ولزوجته حواء الجنة أن يأكلا منها من جميع ثمارها إلا شجرة واحدة فعند ذلك حسدهما الشيطان وسعى في المكر والوسوسة والخديعة ليسلبهما ما هما فيه من النعمة واللباس الحسن ﴿وَقَالَ﴾ كذباً وافتراء ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا . . .﴾ أي لئلا تكونوا ملكيتين أو خالدين ها هنا ، ولو أنكما أكلتما منها لحصل لكما ذلكما كقوله : ﴿قَالَ يَتَكَاذِبُ هَلْ أَذْلَكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ [طه : 120] .

﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لِنَاصِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ .

﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾ أي حلف لهما بالله ﴿إِنِّي لَكُمَا لِنَاصِرٍ﴾ فإني من قبلكما ها هنا ، وأعلم بهذا المكان ، وهذا من باب المفاعلة والمراد أحد الطرفين ، أي حلف لهما بالله على ذلك حتى خدعهما ، وقد يخدع المؤمن بالله .

﴿فَذَلَّلْنَاهَا بِفُرُودٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٣﴾﴾ .

كانت الشجرة التي نهى الله عنها آدم وزوجته السنبلة، فلما أكلتا منها بدت لهما سواتهما، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وورق التين، يلزقان بعضه إلى بعض، فناداه الله أما كان لك فيما منحتك من الجنة، وأبحتك منها مندوحة عما حرمت عليك؟ قال: بلى يا رب، ولكن وعزتك ما حسبت أن أحداً يحلف بك كاذباً، قال: فبعرزتي لأهبطنك إلى الأرض ثم لا تنال العيش إلا كدأ.

﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ .

قال الضحاك بن مزاحم في قوله ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا...﴾ هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه.

﴿قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَّعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٢٥﴾﴾ .

قيل: المراد بالخطاب في ﴿أَهْبِطُوا﴾ آدم وحواء وإبليس والحية، ومنهم من لم يذكر الحية، والله أعلم، والعمدة في العداوة آدم وإبليس، ولهذا قال تعالى في سورة طه قال ﴿أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [طه: 123] وحواء تبع لآدم، والحية إن كان ذكرها صحيحاً فهي تبع لإبليس ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَّعٌ إِلَى حِينٍ﴾ أي قرار وأعمار مضروبة إلى آجال معلومة، قد جرى بها القلم، وأحصاها القدر، وسطرت في الكتاب الأول.

﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٦﴾﴾ .

﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ﴾ كقوله ﴿مِنْهَا خَلَقْتَكُمْ فِيهَا نُبَيِّدُكُمْ وَمِنْهَا تُخْرَجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴿٢٧﴾﴾ [طه: 55] يخبر تعالى أنه جعل الأرض داراً لبني آدم مدة الحياة الدنيا، فيها محياهم، وفيها مماتهم وقبورهم، ومنها نشورهم ليوم القيامة الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين ويجازي كلًا بعمله.

﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُورِي سَوَاءَ تَكُمُ وَرِيشًا وَلِبَاسُ الْقُوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ ﴿٢٨﴾﴾ .

يستن الله تعالى على عباده بما جعل لهم من اللباس والريش، فاللباس ستر العورات، وهي السواآت، والرياش، والريش ما يتجمل به ظاهراً، فالأول من الضروريات، والريش من التكميلات والزيادات. قال ابن جرير: الرياش في كلام العرب: الأثاث، وما ظهر من الثياب، وعن ابن عباس الرياش: المال. وفي مسند الإمام أحمد: لبس أبو أمامة ثوباً جديداً فلما بلغ ترقوته قال: الحمد لله الذي كساني ما أوارني به عورتني، وأنجمل به في حياتي، ثم قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: قال رسول الله ﷺ: «من استجد ثوباً فلبسه فقال حين يبلغ ترقوته: الحمد لله الذي كساني ما أوارني به عورتني، وأنجمل به في حياتي، ثم عمد إلى الثوب الخلق فتصدق به كان في ذمة الله وفي جوار

الله، وفي كنف الله حياً وميتاً ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ قيل: هو ما يلبسه المتقون يوم القيامة، وقيل: لباس التقوى والإيمان، أو السمت الحسن في الوجه، أو هو خشية الله.

﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ لَا يَفْنَىٰكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّكُمْ يَرِنُكُمْ هُوَ وَقِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرْوُونَهُ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

يحذر تعالى بني آدم من إبليس وقبيله مبيناً لهم عداوته القديمة لأبي البشر آدم ﷺ في سعيه في إخراجه من الجنة التي هي دار النعيم إلى دار التعب والعناء والتسبب في هتك عورته بعدما كانت مستورة عنه، وما هذا إلا عن عداوة أكيدة، وهذا كقوله تعالى ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِكُمْ وَأَنْتُمْ عَنْهُمْ مُّذْئَبُونَ﴾ [الكهف: 50].

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

كان العرب ما عدا قريشاً لا يطوفون بالبيت في ثيابهم التي لبسوها، يتأولون في ذلك أنهم لا يطوفون في ثياب عصوا الله فيها، وكانت قريش وهم الحمس يطوفون في ثيابهم، ومن أعاره أحمسي ثوباً طاف فيه، ومن معه ثوب جديد طاف فيه ثم يلقيه، فلا يملكه أحد، ومن لم يجد ثوباً جديداً ولا أعاره أحمسي ثوباً طاف عرياناً، وربما كنت امرأة تطوف عريانة فتجعل على فرجها شيئاً ليستره بعض الستر فتقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحله

وأكثر ما كان النساء يطفن عراة بالليل، وكان هذا شيئاً قد ابتدعوه من تلقاء أنفسهم، واتبعوا فيه آباءهم، ويعتقدون أن فعل آبائهم مستند إلى أمر من الله وشرع فأنكر الله عليهم ذلك فقال: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً...﴾ فقال تعالى رداً عليهم ﴿قُلْ﴾ أي يا محمد لمن ادعى ذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ أي هذا الذي تصنعونه فاحشة منكورة، والله لا يأمر بمثل ذلك ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي أتمدنون إلى الله من الأقوال ما لا تعلمون صحته؟.

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿بِالْقِسْطِ﴾ أي بالعدل والاستقامة ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ...﴾ أي أمركم بالاستقامة في عبادته، فإنه تعالى لا يتقبل العمل حتى يجمع هذين الركنين أن يكون صواباً موافقاً للشرعة، وأن يكون خالصاً من الشرك ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ يحييكم بعد موتكم، فكما بدأكم في الدنيا كذلك تعودون يوم القيامة أحياء. وعن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال: «يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى

الله حفاة عراة غرلاً ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُمْ وَعَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: 104] أخرجاه في الصحيحين. وعن مجاهد ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ قال: يبعث المسلم مسلماً والكافر كافراً.

﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ ﴿٣٠﴾.

﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ عن ابن عباس: إن الله تعالى بدأ خلق ابن آدم مؤمناً وكافراً كما قال ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنُكِرَ كُفْرًا وَمِنْكُمْ مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: 2] ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأ خلقهم مؤمناً وكافراً، ويتأيد هذا بحديث البخاري «فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل لعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها» والمراد من هذا القول أن الله خلقهم ليكون منهم مؤمن وكافر في ثاني الحال لأنه قد فطر الخلق كلهم على معرفته وتوحيده والعلم بأن لا إله غيره، كما أخذ عليهم الميثاق بذلك في غرائزهم وفطرهم قال تعالى: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: 30] وفي الصحيحين «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه» وفي الحديث يقول الله تعالى: «إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم».

﴿يَبْتَغِي ۖ ءَادَمُ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ ﴿٣١﴾.

هذه الآية رد على المشركين فيما كانوا يعتمدونه من الطواف بالبيت عراة كما رواه مسلم والنسائي، فأمرهم الله بالزينة، والزينة اللباس، وهو ما يوارى السوءة، وما سوى ذلك من جيد البز والمتاع فأمرهم أن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد، ولهذه الآية وما ورد في معناها من السنة يستحب التجمل عند الصلاة، ولا سيما يوم الجمعة ويوم العيد، والطيب لأنه من الزينة والسواك لأنه من تمام ذلك، ومن أفضل اللباس البياض ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ روى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال: «كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا من غير مخيلة ولا سرف فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده» ورواه النسائي وابن ماجه. وفي الحديث: «إن من السرف أن تأكل كل ما اشتيت» رواه الدارقطني.

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْأَلْبَتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٢﴾.

يقول تعالى رداً على من حرم شيئاً من المآكل أو المشارب أو الملابس من تلقاء نفسه من غير شرع من الله ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يحرمون ما يحرمون بأرائهم الفاسدة وابتداعهم ﴿مَنْ

حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ ﴿٢١﴾ أي مخلوقة لمن آمن بالله وعبدته في الحياة الدنيا، وإن شركهم فيها الكفار حساً في الدنيا فهي لهم خاصة يوم القيامة لا يشركهم فيها أحد من الكفار، فإن الجنة محرمة على الكافرين.

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُزَلِّ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ﴾ (٢٢).

روى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال: «لا أحد أغير من الله، فلذلك حرم الفواحش ما ظهر منها، وما بطن، ولا أحد أحب إليه المدح من الله» وقوله: ﴿وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ حاصل ما فسر به الإثم أنه الخطايا المتعلقة بالفاعل نفسه، والبغي هو التعدي إلى الناس فحرم الله هذا وهذا. ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُزَلِّ بِهِ سُلْطَانًا﴾ أي تجعلوا له شركاء في عبادته ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ﴾ من الافتراء والكذب من دعوى أن له ولداً، ونحو ذلك مما لا علم لكم به.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ﴾ (٢٣).
﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ أي قرن وجيل ﴿أَجَلٌ﴾ أي ميقاتهم المقدر لهم.

﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ إِمَامًا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ أَتَقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٢٤).

ثم أُنذر تعالى بني آدم أنه سيعث إليهم رسلاً يقصون عليهم آياته، وبشر وحذر فقال: ﴿فَمَنْ أَتَقَى وَأَصْلَحَ﴾ أي ترك المحرمات وفعل الطاعات ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٥).
﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي كذبت بها قلوبهم واستكبروا عن العمل بها ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ...﴾ أي ماكنون فيها مكثاً مخلداً.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ (٢٦).

أي لا أحد أظلم ممن افترى على الله، أو كذب بآياته المنزلة ﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾ نصيبهم من الأعمال، من عمل خيراً جزى به، ومن عمل شراً جزى به ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ يخبر تعالى أن الملائكة إذا توفت المشركين تفزعهم عند الموت وتقضي أرواحهم إلى النار، يقولون لهم: أين الذين كنتم تشركون بهم في الحياة الدنيا، وتعبدونهم من دون الله؟ ادعواهم

يخلصوكم مما أنتم فيه ﴿قَالُوا صَلُّوا عَلَيْنَا﴾ أي ذهبوا عنا، فلا ترجوا نفعهم ولا خيرهم ﴿وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ أي أقروا واعترفوا على أنفسهم ﴿أَنْهُمْ كَاوُوا كَفِيرِينَ﴾.

﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرِيَهُمْ لِأُولَئِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَفَاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٣٨).

يقول تعالى مخبراً عما يقوله لهؤلاء المشركين به المفتريين عليه المكذبين بآياته ﴿ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ﴾ أي أمثالكم، وعلى صفاتكم ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أي من الأمم السالفة الكافرة ﴿مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ﴾ يحتمل أن يكون بدلاً من قوله ﴿فِي أُمَمٍ﴾ ويحتمل أن يكون ﴿يَمِّنَ أَفْتَرَى﴾ أي مع أمم. وقوله ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ كما قال الخليل عليه السلام ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [النكبت: 25] وقوله: ﴿حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا﴾ أي اجتمعوا فيها كلهم ﴿قَالَتْ أُخْرِيَهُمْ لِأُولَئِهِمْ﴾ أي أخرجهم دخولاً، وهم الأتباع لأولاهم، وهم المتبوعون، لأنهم أشد جرمًا من أتباعهم فدخلوا قبلهم فيسكوهم الأتباع إلى الله يوم القيامة، لأنهم هم الذين أضلّوهم عن سواء السبيل، فيقولون: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَفَاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ﴾ أي أضعف عليهم العقوبة كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَا ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَتُمْ لَنَا كَبِيرًا﴾ (١٦) [الأحزاب: 68] وقوله ﴿لِكُلِّ ضِعْفٍ﴾ أي قد فعلنا ذلك، وجازينا كلا بحسبه.

﴿وَقَالَتْ أُولَئِهِمْ لِأُخْرِيَهُمْ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ (٣٩).

﴿وَقَالَتْ أُولَئِهِمْ لِأُخْرِيَهُمْ﴾ أي قال المتبوعون للأتباع ﴿فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ أي فقد ضللتكم كما ضللنا ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يُلَاجِ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ (٤٠).

﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ قيل: المراد لا يرفع لهم منها عمل صالح، أو لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء، روى ابن جرير عن البراء أن رسول الله ﷺ ذكر قبض روح الفاجر، وأنه يصعد بها إلى السماء، فيصعدون بها، فلا تمر على ملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: فلا يزال بأقبح أسمائه التي كان يدعى بها في الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء، فيستفتحون بابها له، فلا يفتح له، ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ...﴾ قال ابن جرير: لا تفتح لأعمالهم ولا لأرواحهم، وهذا فيه جمع بين القولين. وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يُلَاجِ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ حتى يدخل البعير في خرق الإبرة، وعن ابن عباس أنه كان يقرؤها ﴿يُلَاجِ الْجَمَلُ﴾ بضم الجيم وتشديد الميم يعني الحبل الغليظ في خرق الإبرة.

﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ (٤١).

﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ فرش ﴿وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ لحف.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٤٢).

لما ذكر تعالى حال الأشقياء عطف بذكر حال السعداء فقال: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي آمنت قلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم، هؤلاء ضد ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ به تعالى على أن الإيمان والعمل به سهل، لأنه تعالى قال: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَتُودُوا أَنْ تُلَكُمُ الْجَنَّةَ أَوْرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٤٣).

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾ أي من حسد وبغض، روى النسائي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أهل الجنة يرى مقعده من الجنة، فيقول: لولا أن الله هداني، فيكون له شكرًا، وكل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول: لو أن الله هداني فيكون له حسرة، ولهذا لما أورثوا مقاعد أهل النار من الجنة ﴿وَتُودُوا أَنْ تُلَكُمُ الْجَنَّةَ أَوْرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي بسبب أعمالكم نالتكم الرحمة فدخلتم الجنة، وتبوأتم منازلكم بحسب أعمالكم، وإنما وجب الحمل على هذا لما ثبت في الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: «واعلموا أن أحدكم لن يدخله عمله الجنة» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته منه وفضل» قال قتادة: قال علي رضي الله عنه: إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله فيهم ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ...﴾ رواه ابن جرير.

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبَّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (٤٤).

يخبر تعالى بما يخاطب به أهل النار على التقريع والتوبيخ إذا استقروا في منازلهم ﴿أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبَّنَا حَقًّا﴾ أي قالوا لهم: ﴿قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا...﴾ كما أخبر تعالى في سورة الصافات عن الذي كان له قرين من الكفار ﴿فَاطْلَعْ فَرَّاهُ فِي سَوَاءِ الْحَجِيرِ﴾ (٥٥) قَالَ تَأَلَّهْ إِنَّ كِدْتَ لَتُرِينَ (٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضَرِّينَ (٥٧) أَمَّا نَحْنُ بِمَبْتَلَيْنِ (٥٨) إِلَّا مَوْتَنَا الْأَوَّلَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) [الصافات: 55 - 59] أي ينكر عليه هذه المقالة التي يقولها في الدنيا، ويقرعه بما صار إليه من العذاب، والنكال، وكذلك تفرعهم

الملائكة، يقولون لهم: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ يَهَا تَكْذِبُونَ﴾ (١٤) أَفَيْحَرُّ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ أَصَلَوْهَا فَأَصْبَرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ [الفرقان: 14 - 16]. وكذلك قرع رسول الله قتلى القلب يوم بدر فنادى «يا أبا جهل بن هشام، ويا عتبة بن ربيعة، ويا شيبة بن ربيعة - وسمى رؤوسهم - هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً» وقال عمر: يا رسول الله، تخاطب قوماً قد جيفوا؟ فقال: «والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يستطيعون أن يجيبوا». ﴿فَإِذْ يُؤَذِّنُ بَيْنَهُمْ﴾ أي أعلم معلم، ونادى مناد ﴿أَنْ لَّعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ أي مستقرة عليهم.

﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ (١٧).

ثم وصفهم بقوله: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي يصدون الناس عن اتباع سبيل الله وشرعه، وما جاءت به الأنبياء، ويبغون أن تكون السبيل معوجة غير مستقيمة حتى لا يتبعها أحد ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ أي وهم بلقاء الله في الدار الآخرة كافرون، أي جاحدون مكذبون بذلك، لا يصدقونه ولا يؤمنون به، فلهذا لا يبالون بما يأتون من منكر من القول والعمل، لأنهم لا يخافون حساباً عليه ولا عقاباً، فهم شر الناس أقوالاً وأعمالاً.

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ وَنَادَوُا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ لَنْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ (١٨).

لما ذكر الله تعالى مخاطبة أهل الجنة مع أهل النار نبه أن بين الجنة والنار حجاباً، وهو الحاجز المانع من وصول أهل النار إلى الجنة، قال ابن جرير: وهو السور الذي قال الله تعالى فيه: ﴿فَصَرَبَ بَيْنَهُمْ بُسُورٌ ثُمَّ بَابٌ بَاطِنٌ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرٌ مِنْ قَبْلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد: 13] وهو الأعراف الذي قال الله فيه: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ واختلفت عبارات المفسرين في أصحاب الأعراف من هم؟ وكلها قريبة ترجع إلى معنى واحد، وهو أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ﴾ يعرفون أهل الجنة ببياس الوجوه، وأهل النار بسواد الوجوه، ﴿وَنَادَوُا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ﴾ وهم في ذلك يحييون أهل الجنة بالسلام ﴿لَنْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ أن يدخلوها، وهم داخلوها إن شاء الله.

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (١٩).

عن ابن عباس أن أصحاب الأعراف إذا نظروا إلى أهل النار وعرفوهم قالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٢٠).

يقول تعالى إخباراً عن تقريع أهل الأعراف لرجال من صناديد قريش وقادتهم يعرفونهم في النار بسيماهم ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَنَّمُكُمْ﴾ أي كثرتكم ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي لا ينفعكم كثرتكم، ولا جموعكم من عذاب الله، بل صرتم إلى ما أنتم فيه من العذاب والنكال.

﴿أَهْوَلَاءَ الَّذِينَ أَفْسَسْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ (٤٩).

﴿أَهْوَلَاءَ الَّذِينَ أَفْسَسْتُمْ...﴾ يعني أصحاب الأعراف ﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ قال حذيفة: إن أصحاب الأعراف قوم تكاثفت أعمالهم فقصرت بهم حسناتهم عن الجنة، وقصرت بهم سيئاتهم عن النار، فجعلوا على الأعراف، يعرفون الناس بسيماهم، فلما قضى الله بين العباد أذن لهم في طلب الشفاعة فأتوا آدم. فقالوا: يا آدم أنت أبونا، فاشفع لنا عند ربك، فقال: هل تعلمون أن أحداً خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وسبقت رحمته إليه غضبه، وسجدت له الملائكة غيري؟ فيقولون: لا، فيقول: ما علمت كنهه، ما أستطيع أن أشفع لكم، ولكن اتوا إبراهيم فيأتون إبراهيم صلى الله عليه وسلم فيسألونه أن يشفع لهم عند ربهم، فيقول: تعلمون من أحد اتخذ الله خليلاً؟ هل تعلمون أحداً أحرقة قومه بالنار في الله غيري؟ فيقولون: لا، فيقول: ما علمت كنهه، ما أستطيع أن أشفع لكم، ولكن اتوا ابني موسى فيأتون موسى عليه السلام، فيقول: هل تعلمون من أحد كلمه الله تكليماً، وقربه نجياً غيري؟ فيقولون: لا، فيقول: ما علمت كنهه، ما أستطيع أن أشفع لكم، ولكن اتوا عيسى فيأتونه عليه السلام فيقولون له: اشفع لنا عند ربك، فيقول: هل تعلمون أحداً خلقه الله من غير أب غيري؟ فيقولون: لا، فيقول: هل تعلمون من أحد كان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله غيري؟ قال: فيقولون: لا، فيقول: أنا حجيج نفسي، ما علمت كنهه، ما أستطيع أن أشفع لكم، ولكن اتوا محمداً صلى الله عليه وسلم فيأتوني فأضرب بيدي على صدري، ثم أقول: أنا لها، ثم أمشي حتى أقف بين يدي العرش فآتي ربي عز وجل، فيفتح لي بالثناء ما لم يسمع السامعون بمثله قط، ثم أسجد فيقال لي: يا محمد ارفع رأسك، وسل تعطه، واشفع تشفع فأرفع رأسي ثم أئني على ربي عز وجل، ثم آخر ساجداً، فيقال لي: ارفع رأسك وسل تعطه واشفع تشفع، فأرفع رأسي فأقول: ربي أمتي، فيقول هم لك، فلا يبقى نبي مرسل، ولا ملك مقرب إلا غبطني بذلك المقام المحمود، وهو المقام المحمود، فآتي بهم الجنة فأسفتح فيفتح لي ولهم، فيذهب بهم إلى نهر يقال له: نهر الحيوان، حافته قصب مكلل بالؤلؤ، ترابه المسك، وحصاؤه الياقوت، فيغتسلون فيه، فتعود إليهم ألوان أهل الجنة وريح أهل الجنة، فيصيرون كأنهم الكواكب الدرية، ويبقى في صدورهم شامات بيض يعرفون بها، يقال: مساكين أهل الجنة.

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ

اللَّهُ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتُهُمُ الدُّنْيَا فَاَلْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِتَابِعِينَ يَجْحَدُونَ ﴿٥٦﴾ .

يخبر تعالى عن ذلة أهل النار، وسؤالهم أهل الجنة من شراهم وطعامهم وأنهم لا يجابون إلى ذلك ﴿أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ يعني الطعام، ينادي الرجل أباه أو أخاه، فيقول له: قد احترقت، فأفرض علي من الماء، فيقال لهم: أجيئوهم فيقولون: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ يعني طعام الجنة وشراها. روى ابن أبي حاتم قال: سئل ابن عباس أي الصدقة أفضل؟ فقال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصدقة الماء، ألم تسمع إلى أهل النار لما استغاثوا بأهل الجنة، قالوا: أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله»، وقوله ﴿فَاَلْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ...﴾ أي يعاملهم معاملة من نسيهم لأنه تعالى لا يشذ عن علمه شيء ولا ينساه كما قال تعالى: ﴿فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: 52] وإنما قال تعالى هذا من باب المقابلة ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: 76] ﴿كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ [طه: 126] وعن ابن عباس: نسيهم الله من الخير ولم ينسهم من الشر. وفي الصحيح أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: ألم أزوجك؟ ألم أكرمك؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل، وأذكرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى، فيقول: أظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا، فيقول الله تعالى: فالיום أنساك كما نسيته.

﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٧﴾﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن أعدائه إلى المشركين بإرسال الرسل إليهم بالكتاب الذي جاء به الرسول، وأنه كتاب مفصل مبين ﴿فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ للعالمين أي على علم منا بما فصلناه به كقوله: ﴿أَنزَلْنَاهُ بِعِلْمِنَا﴾ [النساء: 166].

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ .

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ أي ما وعدوا به من العذاب والنكال والجنة والنار، وقال الربيع: لا يزال يأتي من تأويله أمر حتى يتم يوم الحساب حتى يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، فيتم تأويله يومئذ ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ﴾ أي يوم القيامة ﴿يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي تركوا العمل به، وتناسوه في الدار الدنيا ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ أي في خلاصنا مما صرنا إليه مما نحن فيه ﴿أَوْ نُرَدُّ﴾ إلى الدار الدنيا ﴿فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ كقوله: ﴿وَلَوْ رَدُّنَا إِلَىٰ ذُنُوبِنَا أَوْ قُتِلْنَا أَلَمْ نَكُنتُمْ لِلدُّنْيَا خَاسِرِينَ ﴿٦١﴾﴾ بل بدأ لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴿٦٢﴾ [الأنعام: 27، 28] كما قال ههنا ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا

يَقْتَرُونَ ﴿١٠٤﴾ أَي خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِدُخُولِهِمُ النَّارَ وَخُلُودِهِمْ فِيهَا ﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَقْتَرُونَ﴾ أَي ذَهَبَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَلَا يَشْفَعُونَ فِيهِمْ وَلَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَا يَنْقُذُونَهُمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ .

﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى آيِلَ النَّهَارِ يَطْلُبُهُ حَيْثُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ .

يخبر تعالى أنه خلق العالم سماواته وأرضه، وما بين ذلك في ستة أيام كما أخبر بذلك في غير ما آية من القرآن، والستة الأيام هي الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة، وفيه اجتمع الخلق كله، وفيه خلق آدم ﷺ، فأما السبت فلم يقع فيه خلق، لأنه اليوم السابع، ومنه السبت، وهو القطع ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ فللناس في هذا المقام مقالات كثيرة جداً، وإنما نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكيف ولا تشبيه، ولا تعطيل، والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله، فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11] ومن شبه الله بخلقه كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه تشبيه فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة على الوجه الذي يليق بجلال الله، ونفى عن الله تعالى النقائص فقد سلك سبيل الهدى. وقوله ﴿يُغْشَى آيِلَ النَّهَارِ يَطْلُبُهُ حَيْثُ﴾ أي يذهب ظلام هذا بضياء هذا، وضياء هذا بظلام هذا، وكل منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً، أي سريعاً، لا يتأخر عنه، بل إذا ذهب هذا جاء هذا وعكسه، كقوله: ﴿وَأَيُّ لَّهُمْ آيِلٌ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ [١٧] وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا آيِلٌ سَابِقَ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس: 37 - 40] فقوله: ﴿وَلَا آيِلٌ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ أي لا يفوته بوقت يتأخر عنه، بل هو في أثره بلا واسطة بينهما، ولهذا قال: ﴿يَطْلُبُهُ حَيْثُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ أي الجميع تحت قهره وتسخيره، ولهذا قال: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ أي له الملك والتصرف ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ وفي الدعاء المأثور عن أبي الدرداء وروي مرفوعاً «اللهم لك الملك كله، ولك الحمد كله، وإليك يرجع الأمر كله، أسألك من الخير كله، وأعوذ بك من الشر كله» .

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ ﴿١٠٦﴾﴾ .

أرشد تبارك وتعالى عباده إلى دعائه الذي هو صلاحهم في دنياهم وأخراهم فقال ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ تذلاً واستكانة، وخيفة كقوله ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [الأعراف: 205] وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال: رفع الناس أصواتهم بالدعاء

فقال رسول الله ﷺ: «أيها الناس، اربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إن الذي تدعون سميع قريب» قال ابن جرير: في قوله ﴿تَضَرَّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: 205] تضرعاً: تذلاً، واستكانة لطاعته وخفية: يقول بخشوع قلوبكم، وصحة اليقين بوحدانته وربوبيته فيما بينكم وبينه، لا جهاراً مراة. عن الحسن قال: إن كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به الناس، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير وما يشعر به الناس، وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته، وعنده الزوار وما يشعرون به، ولقد أدركنا أقواماً ما كان على الأرض من عمل يقدر أن يعملوه في السر فيكون علانية أبداً، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوت، إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم، وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرَّعًا وَخُفْيَةً﴾ وذلك أن الله ذكر عبداً صالحاً رضي فعله فقال ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ يَدَّاءَ خُفْيًا﴾ [مريم: 3] وقال ابن جريج: يكره رفع الصوت والنداء والصياح في الدعاء ويؤمر بالتضرع والاستكانة ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُنْتَدِينَ﴾ في الدعاء ولا في غيره كأن يسأل منازل الأنبياء. سمع عبد الله بن مغفل ابنه يقول: اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها، فقال: يا بني، سل الله الجنة وعذبه من النار، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يكون قوم يعتدون في الدعاء والطهور».

﴿وَلَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٥٦).

ينهى تعالى عن الإفساد في الأرض، وما أضره بعد الإصلاح، فإنه إذا كانت الأمور ماشية على السداد، ثم وقع الإفساد بعد ذلك كان أضر ما يكون على العباد ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي خوفاً مما عنده من وبيل العقاب، وطمعاً فيما عنده من جزيل الثواب ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي إن رحمته مرصدة للمحسنين الذين يتبعون أوامره، ويتركون زواجره.

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سَقَنَّهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٥٧).

لما ذكر تعالى أنه خالق السموات والأرض، وأنه المتصرف الحاكم المدير المسخر، وأرشد إلى دعائه، لأنه على ما يشاء قادر نبه تعالى على أنه الرازق، وأنه يعيد الموتى يوم القيامة فقال ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّحَ بُشْرًا﴾ كقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ [الروم: 46] وقوله ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أي بين يدي المطر ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ أي حملت الرياح سحاباً ثقالاً أي من كثرة ما فيها من الماء تكون ثقيلة قريبة من الأرض مدلهمة ﴿سَقَنَّهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ أي إلى أرض ميتة مجسبة لا نبات فيها ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ﴾ أي كما أحيينا هذه الأرض بعد موتها كذلك نحیی الأجساد بعد صيرورتها رميمًا يوم القيامة.

﴿وَالْبَلَدُ الطَّنْبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبَتْ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ
الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ (٥٨).

أي والأرض الطيبة يخرج نباتها سريعاً حسناً، كقوله: ﴿وَأَنْبَتْنَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: 37] و﴿وَالَّذِي خَبَتْ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ كالسباخ ونحوها، عن ابن عباس: هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، وفي الحديث «مثل ما بعثني الله به من العلم والهدى كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكانت منها نقيّة قبلت الماء، فأنبتت الكلاً والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس فشربوا، وسقوا، وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماء، ولا تنبت كلاً، فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعمل، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به» رواه البخاري ومسلم والنسائي.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوِّرُوا عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ إِنَِّّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ
عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٥٩).

لما ذكر تعالى قصة آدم في أول السورة وما يتعلق بذلك، وما يتصل به وفرغ منه شرع تعالى في ذكر قصص الأنبياء ﷺ الأول فالأول، فابتدأ بذكر نوح ﷺ، فإنه أول رسول بعثه الله إلى الأرض بعد آدم ﷺ، وهو نوح بن لامك، وإنما سمي نوحاً لكثرة ما ناح على نفسه. وقد كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام. وكان أول ما عبدت الأصنام أن قوماً صالحين ماتوا فبنى قومهم عليهم مساجد وصوروا صور أولئك فيها ليتذكروا حالهم، وعبادتهم فيتشبهوا بهم، فلما طال الزمان جعلوا أجساداً على تلك الصور، فلما تمادى الزمان عبدوا تلك الأصنام، وسموها بأسماء أولئك الصالحين: ودأ وسواعاً ويغوث ويعوق ونسراً، فلما تفاقم الأمر بعث الله سبحانه وتعالى وله الحمد والمنة رسوله نوحاً، فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له فقال ﴿يَتَقَوِّرُوا عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ إِنَِّّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي من عذاب يوم القيامة إذ لقيتم الله، وأنتم مشركون به.

﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٦٠).

﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ﴾ أي الجمهور والسادة والقادة والكبراء منهم ﴿إِنَّا لَنَرُّكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي في دعوتك إيانا إلى ترك عبادة هذه الأصنام التي وجدنا عليها آباءنا، وهكذا حال الفجار إنما يرون الأبرار في ضلالة.

﴿قَالَ يَتَقَوِّرُ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٦١).

أي ما أنا بضال، ولكن أنا رسول من رب كل شيء ومليكه.

﴿أَبْلَغُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَأَنْصَحَ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٢﴾﴾ .

وهذا شأن الرسول، أن يكون مبلغاً فصيحاً ناصحاً عالماً بالله، لا يدركه أحد من خلق الله في هذه الصفات كما جاء في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم عرفة أوفر ما كانوا، وأكثر جمعاً «أيها الناس، إنكم مسؤولون عني، فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فجعل يرفع إصبعه إلى السماء، وينكسها عليهم ويقول: «اللهم اشهد».

﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ .

يقول تعالى إخباراً عن نوح أنه قال لقومه ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ...﴾ أي لا تعجبوا من هذا، فإن هذا ليس بعجيب أن يوحى الله إلى رجل منكم رحمة بكم ولطفًا وإحساناً إليكم لينذركم، ولتتقوا نقمة الله ولا تشركوا به ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ .

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَجَبْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا

عَمِينَ ﴿١٤﴾﴾ .

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي تمادوا على تكذيبه ومخالفته، وما آمن معه منهم إلا قليل ﴿فَأَجَبْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ﴾ أي السفينة كما قال ﴿فَأَجَبْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّيْفَةِ﴾ [العنكبوت: 15] ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ أي عن الحق، لا يبصرونه، ولا يهتدون له، فبين تعالى في هذه القصة أنه انتقم لأوليائه من أعدائه، وأنجى رسوله والمؤمنين، وأهلك أعداءهم من الكافرين، كقوله ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنَوْمٍ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ﴿٥١﴾﴾ [غانر: 51] وهذه سنة الله في عباده في الدنيا والآخرة أن العقوبة فيها للمتقين، والظفر والغلب لهم، كما أغرق قوم نوح بالغرق، ونجى نوحاً وأصحابه المؤمنين.

﴿وَإِلَى عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٥﴾﴾ .

يقول تعالى: وكما أرسلنا إلى قوم نوح نوحاً كذلك أرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً، وهو ابن ارم، وهم عاد الأولى الذين ذكرهم الله، وقد كانت مساكنهم باليمن بالأحقاف، وهي جبال الرمل، وقد دفن هود باليمن، وقد كان من أشرف قومه نسباً لأن الرسل إنما يبعثهم الله من أفضل القبائل وأشرفهم، ولكن كان قومه كما شدد خلقهم شدد على قلوبهم، وكانوا من أشد الأمم تكذيباً للحق، ولهذا دعاهم هود عليه السلام إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وإلى طاعته وتقواه.

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّكَ لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ

الْكَاذِبِينَ ﴿١٦﴾﴾ .

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ والملا هم الجمهور والسادة والقادة منهم ﴿إِنَّا لَنَرُّكَ فِي

سَفَاهَةً وَإِنَّا لَنَنْظُرُكَ مِنَ الْكَذِبِينَ ﴿٥﴾ أي في ضلالة حيث تدعوننا إلى ترك عبادة الأصنام، والإقبال على عبادة الله وحده، كما تعجب الملائكة من قريش من الدعوة إلى إله واحد، فقالوا: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ [ص: 5].

﴿قَالَ يَنْفِقُمْ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧﴾﴾ .

أي لست كما تزعمون، بل جئتكم بالحق من الله الذي خلق كل شيء، فهو رب كل شيء ومليكه.

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٨﴾﴾ .

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي...﴾ وهذه الصفات التي يتصف بها الرسل: البلاغ والنصح والأمانة.

﴿أَوْ عَجِبْتَ أَنْ جَاءَكَ مِنْ رَبِّكَ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً فَأَذْكُرُوا ءَالَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٩﴾﴾ .

أي لا تعجبوا أن بعث الله إليكم رسولاً من أنفسكم لينذركم أيام الله ولقائه، بل احمداوا الله على ذلك ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ أي واذكروا نعمة الله عليكم في جعلكم من ذرية نوح الذي أهلك الله أهل الأرض بدعوته لما خالفوه وكذبوه ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً﴾ أي زاد طولكم على الناس بسطة، أي جعلكم أطول من أبناء جنسكم كقوله في قصة طالوت ﴿وَزَادَهُمْ بَسْطَةً فِي أَيْمَانِهِمْ وَالْجَبْرِ﴾ [البقرة: 247] ﴿فَأَذْكُرُوا ءَالَاءَ اللَّهِ﴾ أي نعمه وحمته عليكم ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ والآلاء جمع إلى، وقيل: ألى.

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾ .

يخبر تعالى عن تمردهم وطغيانهم وعنادهم وإنكارهم على هود عليه السلام ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ﴾ كقول الكفار من قريش ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَامْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اقْتُلْنَا بِعَذَابٍ آتٍ﴾ [الأنفال: 32].

﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءِ سَبَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْظُرُوا إِلَيَّ مَعََكُمْ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٧١﴾﴾ .

أي قد وجب عليكم بمقاتلتكم هذه من ربكم رجس أي سخط وغضب ﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءِ سَبَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ﴾ أي أتحاجوني في هذه الأصنام التي سميتوها أنتم وآباؤكم آلهة، وهي لا تضر ولا تنفع، ولا جعل الله لكم على عبادتها حجة ولا دليلاً، ولهذا قال: ﴿مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ...﴾ وهذا تهديد ووعيد من الرسول لقومه، ولهذا عقبه بقوله:

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَّعْنَا دَائِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٧٦).

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ وقد ذكر سبحانه صفة إهلاكهم في أماكن أخرى من القرآن بأنه أرسل عليهم الريح العقيم. ﴿مَا نَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتُمْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتُمْ كَالرَّيْمِ﴾ (الحجر: 42).

﴿وَالِإِى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذُرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ﴾ (٧٣) وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْجُونَ الْجِبَالَ يَوْمًا فَادْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (٧٤) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِكَ أَرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ (٧٦) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحْ آتِنَا بِمَا نَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ﴾ (٧٨).

كانت ثمود بعد عاد، ومساكنهم مشهورة فيما بين الحجاز والشام إلى وادي القرى وما حوله، وقد مر رسول الله ﷺ على ديارهم ومساكنهم وهو ذاهب إلى تبوك في سنة تسع، وفي مسند الإمام أحمد ابن عمر قال لما نزل رسول الله ﷺ بالناس على تبوك نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود، فاستقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود فعمجوا منها، ونصبوا لها القدور، فأمرهم النبي ﷺ فأهرقوا القدور، وعلفوا العجين الإبل، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا، وقال «إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم» قوله تعالى: ﴿وَالِإِى ثَمُودَ﴾ أي ولقد أرسلنا قبيلة ثمود أخاهم صالحاً ﴿قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ فجميع الرسل يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: 25) وقوله: ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾ أي قد جاءكم حجة من الله على صدق ما جئكم به، وكانوا هم الذين سألوا صالحاً أن يأتيهم بآية، واقترحوا عليه بأن تخرج لهم من صخرة صماء عینوها بأنفسهم، وهي صخرة منفردة في ناحية الحجر، يقال لها: الكاتبة فطلبوا منه أن يخرج لهم منها ناقة عشراء تمخض فأخذ عليهم صالح العهود والمواثيق لئن أجابهم الله إلى سؤالهم وأجابهم إلى طلبهم ليؤمنن به ولتبعنه، فلما أعطوه على ذلك عهودهم ومواثيقهم قام صالح ﷺ إلى صلاته ودعا الله عز وجل فتحركت تلك الصخرة ثم انصدعت عن ناقة جوفاء وبراء يتحرك جنيها بين جنبيها كما سألوا، فعند ذلك آمن

رئيسهم جندع بن عمرو، ومن كان معه على أمره، وامتنع عن الإيمان من امتنع، وأقامت الناقة وفصيلها بعدما وضعت بين أظهرهم مدة تشرب من بثرها يوماً وتدعه يوماً لهم، وكانوا يشربون لبنها يوم شربها يحتلبونها فيملأون ما شاؤوا من أوعيتهم وأوانيتهم كما قال في الآية الأخرى ﴿وَيَتَنَبَّهُنَّ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ﴾ [القمر: 28] وقال تعالى: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ لَهْمَا شِرْبٌ وَلَكُزْ شِرْبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾ [الشعراء: 155] وكانت تسرح في بعض تلك الأودية، ترد من فج، وتصدر من غيره، لأنها كانت تتضلع من الماء، فلما اشتد تكذيبهم لصالح النبي ﷺ عزموا على قتلها ليستأثروا بالماء كل يوم فيقال إنهم اتفقوا كلهم على قتلها فرصدوا الناقة حين صدرت عن الماء وقد كمن لها قدار بن سالف في أصل صخرة على طريقها، وكمن لها مصدع في أصل أخرى فمرت على مصدع فرماها بسهم، وشد عليها قدار بالسيف فكشف عن عرقوبها فخرت ساقطة إلى الأرض، فلما فعلوا ذلك وفرغوا من عقر الناقة، وبلغ الخبر صالحاً ﷺ فجاءهم وهم مجتمعون، فلما رأى الناقة بكى وقال: ﴿تَمَتُّوْا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: 65] ثم عزموا على قتل صالح وجاؤوا من الليل ليفتكوا بنبي الله فأرسل الله حجارة فرضختهم سلفاً وتعجلاً قبل قومهم، وبعد ثلاثة أيام جاءتهم صيحة من السماء ورجفة شديدة من أسفل منهم ففاضت الأرواح وزهقت النفوس في ساعة واحدة ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثِيمِينَ﴾ [النكبت: 37] أي صرعى لا أرواح فيهم.

﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَنْقُورٍ لَقَدْ أَتَلَفْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تَحِبُّونَ النَّصِيحَةَ﴾ (٧٩).

هذا تقرير من صالح ﷺ لقومه لما أهلكهم الله بمخالفتهم إياه وتمردهم على الله، وإبائهم عن قبول الحق، وإعراضهم عن الهدى إلى العمى. قال لهم صالح ذلك بعد هلاكهم تقريباً وتوبيخاً، وهم يسمعون ذلك كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما ظهر على أهل بدر أقام هناك ثلاثاً، ثم أمر بإراحته فشدت بعد ثلاث من آخر الليل فركبها ثم سار حتى وقف على القليب قليب بدر فجعل يقول: «يا أبا جهل، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبه بن ربيعة، ويا فلان ابن فلان: هل وجدتم ما وعد ريكماً حقاً، فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً» فقال له عمر: يا رسول الله، ما تكلم من أقوام قد جيفوا؟ فقال: «والذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يجيبون» وفي السيرة أنه ﷺ قال لهم: «بئس عشيرة النبي كنتم لئبيكم، كذبتوني وصدقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وقاتلتموني ونصرني الناس، فبئس عشيرة النبي كنتم لئبيكم» وهكذا صالح ﷺ قال لقومه: ﴿لَقَدْ أَتَلَفْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ أي فلم تنتفعوا بذلك، لأنكم لا تحبون الحق، ولا تتبعون ناصحاً، ولهذا قال: ﴿وَلَكِنْ لَا تَحِبُّونَ النَّصِيحَةَ﴾.

﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَلْحَشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (٨٠).

يقول تعالى: ﴿و﴾ لقد أرسلنا ﴿وَلُوطًا﴾، أو تقديره، ﴿و﴾ اذكر ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ ولوط هو

ابن هارون بن آزر، وهو ابن أخي إبراهيم الخليل عليه السلام، وكان قد آمن مع إبراهيم عليه السلام، وهاجر معه إلى أرض الشام، فبعثه الله إلى أهل سدوم، وما حولها من القرى، يدعوهم إلى الله عز وجل، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المآثم والمحارم والفواحش التي اخترعوها، لم يسبقهم بها أحد من بني آدم، ولا غيرهم، وهو إتيان الذكور دون الإناث وهذا شيء لم يكن بنو آدم تعهدوه ولا تألفه ولا يخطر ببالهم، حتى صنع ذلك أهل سدوم عليهم لعائن الله، قال عمرو بن دينار: ما نزل ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط، وقال الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي باني جامع دمشق: لولا أن الله عز وجل قص علينا خبر قوم لوط ما ظننت أن ذكراً يعلو ذكراً، ولهذا قال لهم لوط ﴿أَتَأْتُونَ الذَّكَاءَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿إِنَّكُمْ لَأَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ بَلْ أَنْتُمْ مُسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ .
 ﴿إِنَّكُمْ لَأَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ أي عدلتم عن النساء، وما خلق لكم ربكم منهن إلى الرجال، وهذا إسراف منكم وجهل، لأنه وضع الشيء في غير محله، ولهذا قال لهم في الآية الأخرى ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتُ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الحجر: 71] فأرشدتهم إلى نسائهم فاعتذروا إليه بأنهم لا يشتهونهن ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ لَنَا فِي بَنَاتِكُمْ مِنْ حَقٍّ وَرَبِّكَ لِلْعَمَلِ مَا يُرِيدُ﴾ [مرد: 79] أي لقد علمت أنه لا أرب لنا في النساء، ولا إرادة، وإنك لتعلم مرادنا من أضيافك، وذكر المفسرون أن الرجال كانوا قد استغنى بعضهم ببعض، وكذلك نساؤهم قد استغنين بعضهن ببعض.

﴿وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْغُضُونَ﴾ ﴿٨٢﴾ .

أي ما أجابوا لوطاً إلا أن هموا بإخراجه ونفيه من بين أظهرهم، فأخرجه الله تعالى سالماً، وأهلكهم في أرضهم صاغرين مهانين. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْغُضُونَ﴾ قال قتادة: عابوهم بغير عيب.

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ ﴿٨٣﴾ .

يقول تعالى: فأنجينا لوطاً وأهله ولم يؤمن به أحد منهم سوى أهل بيته فقط كما قال تعالى ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٣٥﴾ فَأَجْعَلْنَا فِيهَا عَمْرًا مِنْ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ [الحجر: 35، 36] إلا امرأته فإنها لم تؤمن به، بل كانت على دين قومها تماثلهم عليه، وتعلمهم بما يقدم عليه من ضيفانه بإشارات بينها وبينهم، ولهذا قال: ﴿إِلَّا أَمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ أي الباقيين وقيل: الهالكين.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿٨٤﴾ .

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ مفسر بقوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِنْ سِجِّيلٍ مَنُشُودٍ﴾ ﴿٨٥﴾ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا مِنْ مِنَ الظَّالِمِينَ بِعِيدٍ ﴿٨٦﴾ [مرد: 82، 83] ولهذا قال ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي انظر يا محمد كيف كان عاقبة من يجترئ على معاصي الله عز وجل، ويكذب

رسله، وقد ذهب الإمام أبو حنيفة رحمه الله إلى أن اللاتط يلقى من شاهر ويتبع بالحجارة كما فعل بقوم لوط، وذهب آخرون من العلماء إلى أنه يرجم سواء كان محصناً أو غير محصن، وهو أحد قولي الشافعي رحمه الله، والحجة ما رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه عن رسول الله ﷺ «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول» وقال آخرون: هو كالزاني فإن كان محصناً رجم، وإن لم يكن محصناً جلد مائة جلدة، وهو القول الآخر للشافعي، وأما إتيان النساء في أدبارهن فهو اللوطية الصغرى، وهو حرام العلماء، وقد ورد في النهي عنه أحاديث كثيرة.

﴿وَالِى مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْفَوِرَ عَبْدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَارْزُقُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

قال محمد بن إسحق: هم من سلالة مدين بن إبراهيم، وشعيب هو ابن ميكيل. ومدين تطلق على القبيلة وعلى المدينة، وهي التي بقرب «معان» من طريق الحجاز، قال تعالى ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدِينٍ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص: 23] وهم أصحاب الأيكة ﴿قَالَ يَنْفَوِرَ عَبْدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ هذه دعوة الرسل كلهم ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي قد أقام الله الحجج والبيانات على صدق ما جئتمكم به، ثم وعظهم في معاملتهم الناس بأن يوفوا المكيال والميزان، ولا يبخسوا الناس أشياءهم، أي لا يخونوا الناس في أموالهم، ويأخذوها على وجه النخس، وهو نقص المكيال والميزان خفية وتدليساً كما قال تعالى ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾﴾ [المطففين: 1 - 5] وهذا التهديد شديد، ووعيد أكيد. نسأل الله العافية منه.

﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَذَّبْتُمْ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عِقَابَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

ثم قال تعالى إخباراً عن شعيب الذي يقال له: خطيب الأنبياء لفصاحة عبادته، وجزالة موعظته ناهياً إياهم عن قطع الطريق الحسي والمعنوي بقوله: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ أي تتواعدون الناس بالقتل إن لم يعطوكم أموالهم فقد كانوا عشارين، وكانوا يتواعدون المؤمنين الآتين إلى شعيب لاتباعه، والأول أظهر ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ أي وتودون أن تكون سبيل الله عوجاً مائلة ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَذَّبْتُمْ﴾ أي كنتم مستضعفين لقتلكم فصرتم أعزة لكثرة عددكم، فاذكروا نعمة الله عليكم في ذلك ﴿وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عِقَابَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي من الأمم الخالية، والقرون الماضية، وما حل بهم من العذاب والنكال باجترانهم على معاصي الله وتكذيب رسله.

﴿وَلِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (٨٧).

﴿فَاصْبِرُوا﴾ أي انتظروا ﴿حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾ وبينكم أي يفصل ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ فإنه سيجعل العاقبة للمتقين، والدمار على الكافرين.

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أُولَئِكَ كَافِرِينَ﴾ (٨٨).

هذا خبر من الله تعالى عما واجهته به الكفار نبيه شعبياً ومن معه من المؤمنين في توعدهم إياه ومن معه من المؤمنين بالنفي عن القرية، أو الإكراه على الرجوع في ملتهم والدخول معهم فيما هم فيه. وهذا خطاب مع الرسول، والمراد اتباعه الذين كانوا معه على ملته. وقوله: ﴿أُولَئِكَ كَافِرِينَ﴾ يقول: أو أنتم فاعلون ذلك ولو كنا كارهين ما تدعوننا إليه؟.

﴿قَدْ أَفْرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ بَعَثْنَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ (٨٩).

إنا إن رجعنا إلى ملتكم ودخلنا معكم فيما أنتم فيه فقد أعظمنا الفرية على الله في جعل الشركاء معه أنداداً، وهذا تنفير منه عن اتباعهم ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ وهذا رد مستقيم، فإنه يعلم كل شيء، وقد أحاط بكل شيء علماً ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أي في أمورنا: ما نأتي بها وما نذر ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ أي احكم بيننا وبين قومنا، وانصرنا عليهم ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ أي خير الحاكمين، فإنك العادل الذي لا يجور أبداً.

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ أَتَيْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَيْرُونَ﴾ (٩٠).

يخبر تعالى عن شدة كفرهم، وتمردهم وعتوهم، وما هم فيه من الضلال، وما جبلت عليه قلوبهم من المخالفة للحق، ولهذا أقسموا وقالوا: ﴿لَئِنْ أَتَيْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَيْرُونَ﴾ فلهذا عقبه بقوله:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمًا﴾ (٩١).

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمًا﴾ (٩١) أخبر تعالى هنا أنهم أخذتهم الرجفة، وذلك كما أرجفوا شعبياً، وأصحابه، وتوعدوهم بالجلاء. وقد أصابهم عذاب يوم الظلة، وهي سحابة أظلتهم فيها شر من نار ولهب، ووهج عظيم، قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: 189] ثم جاءتهم صيحة من السماء، ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم فزهقت الأرواح، وفاضت النفوس، وخمدت الأجسام ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمًا﴾ أي بديارهم التي أرادوا إجلاء الرسول وصحبه منها.

﴿الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٩٦).

ثم قال تعالى مقابلاً لقليلهم ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ أي كأنهم لما أصابتهم النعمة لم يقيموا بديارهم التي أرادوا إجلاء الرسول وصحبه منها.

﴿فَنَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَتِي رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَأَ عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ (٩٧).

أي فتولى عنهم شعيب عليه السلام بعدما أصابهم ما أصابهم من العذاب والنعمة والنكال، وقال مقررًا لهم ومونجاً ﴿يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَتِي رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ أي قد أدبت إليكم ما أرسلت به فلا آسف عليكم، وقد كفرتم بما جئتكم به، فهذا قال: ﴿فَكَيْفَ آسَأَ عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبِأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ (٩٨).

يقول تعالى مخبراً عما اختبر به الأمم الماضية - الذين أرسل إليهم الأنبياء - بالبأساء والضراء، يعني بالبأساء ما يصيبهم في أبدانهم من أمراض وأسقام، والضراء ما يصيبهم من فقر وحاجة ونحو ذلك ﴿لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾، أي يدعون ويخشعون ويبتهلون إلى الله تعالى في كشف ما نزل بهم. وتقدير الكلام أنه ابتلاههم بالشدة ليتضرعوا فما فعلوا شيئاً من الذي أراد منهم، فقلب عليهم الحال ليختبرهم فيه، ولهذا قال:

﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٩٩).

﴿بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾ أي حولنا الحال من شدة إلى رخاء، ومن مرض وسقم إلى صحة وعافية، ومن فقر إلى غنى، ليشكروا على ذلك فما فعلوا. وقوله ﴿حَتَّى عَفَوْا﴾ أي كثروا وكثرت أموالهم وأولادهم، يقال: عفا الشيء إذا كثر ﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا...﴾ يقول تعالى: ابتليناهم بهذا وهذا ليتضرعوا وينيبوا إلى الله فما نجع فيهم لا هذا، ولا هذا، ولا انتبهوا لا بهذا، ولا بهذا، وقالوا: قد مسنا من البأساء والضراء، ثم بعده من الرخاء ما أصاب آبائنا في قديم الزمان والدهر، وإنما الدهر تارات، وتارات، بل لم يتفطنوا لأمر الله فيهم، ولا استشعروا ابتلاء الله لهم في الحالين، وهذا بخلاف حال المؤمنين الذين يشكرون الله على السراء، ويصبرون على الضراء، كما ثبت في الصحيحين «عجباً للمؤمن، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له» فالمؤمن من يتفطن لما ابتلاه الله به من الضراء والسراء، ولهذا جاء في الحديث «لا يزال البلاء بالمؤمن حتى يخرج نقياً من ذنوبه، والمنافق مثله كمثل الحمار، لا يدري فيم ربطه أهله، ولا فيم أرسلوه» أو كما قال. ولهذا عقب هذه الصفة بقوله ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي أخذناهم بالعقوبة بغتة، على بغتة، وعدم شعور منهم، أي أخذناهم فجأة كما في الحديث «موت الفجأة رحمة للمؤمن، وأخذة أسف للكافر».

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٩٦).

يخبر تعالى عن قلة إيمان أهل القرى الذين أرسل فيهم الرسل فقال ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ أي آمنت قلوبهم بما جاءت به الرسل، وصدقته به، واتبعوه واتقوا بفعل الطاعات، وترك المحرمات ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي قطر السماء ونبات الأرض ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي ولكن كذبوا رسلهم فعاقبناهم بالهلاك على ما كسبوا من المآثم والمحارم.

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ (٩٧).

ثم قال مخوفاً ومحذراً من مخالفة أوامره والتجرؤ على زواجه ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ﴾ أي الكافرة ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا﴾ أي عذابنا ونكالنا ﴿بَيِّنًا﴾ أي ليلاً ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾.

﴿أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ﴾ (٩٨).

﴿وَهُمْ يُلْعَبُونَ﴾ أي في حال شغلهم وغفلتهم.

﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٩٩).

﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ أي بأسه ونقمته وقدرته عليهم، وأخذة إياهم في حال سهوهم وغفلتهم ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ولهذا قال الحسن البصري رحمه الله: المؤمن يعمل الطاعات، وهو مشفق وجل خائف، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ

عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ (١٠٠).

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا﴾ قال ابن عباس. أو لم يتبين لهم ﴿أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ ونختم على قلوبهم ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ موعظة ولا تذكيراً.

﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبِيَآئِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا

كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ (١٠١).

لما قص تعالى على نبيه ﷺ خبر قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب، وما كان من اهلاكه الكافرين وانجائه المؤمنين، وأنه تعالى أعذر إليهم بأن بين لهم الحق بالحجج على السنة الرسل صلوات الله عليهم أجمعين قال تعالى ﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿مِنْ أَنبِيَآئِهَا﴾ أي من أخبارها ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بالحجج على صدقهم فيما أخبروهم به كما قال تعالى ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: 15] ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ الباء

سببية أي فما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل بسبب تكذيبهم بالحق أول ما ورد عليهم، حكاه ابن عطية رحمه الله، وهو متجه حسن. ولهذا قال ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾.

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ (١١٢).

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ﴾ أي لأكثر الأمم الماضية ﴿مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ أي ولقد وجدنا أكثرهم فاسقين خارجين عن الطاعة والامثال، والعهد الذي أخذه هو ما جبلهم عليه وفطرهم عليه، وأخذ عليهم في الأصلاب أنه ربهم ومليكهم، وأنه لا إله إلا هو، وأقروا بذلك، وشهدوا على أنفسهم به، فخالفوه وتركوه وراء ظهورهم، وعبدوا مع الله غيره بلا دليل ولا حجة، لا من عقل ولا من شرع، وفي الفطرة السليمة خلاف ذلك، وجاءت الرسل الكرام من أولهم إلى آخرهم بالنهي عن ذلك كما جاء في صحيح مسلم، يقول الله تعالى: إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم. وفي الصحيحين «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه».

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (١١٣).

يقول تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي الرسل المتقدم ذكرهم، كنوح وهود وصالح وشعيب صلوات الله وسلامه عليهم، وعلى سائر أنبياء الله أجمعين ﴿مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ أي بحججنا ودلائلنا البينة ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ وهو ملك مصر في زمن موسى ﴿وَمَلَئِهِ﴾ أي قومه ﴿ظَلَمُوا بِهَا﴾ أي جحدوا وكفروا بها ظلماً منهم وعناداً.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١١٤).

يخبر تعالى عن مناظرة موسى لفرعون، وإظهاره الآيات البينات بحضرة فرعون وقومه من قبط مصر، فقال تعالى ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي أرسلني الذي هو خالق كل شيء، وربّه ومليكه.

﴿حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَىٰ اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ (١١٥).

قال بعضهم: معناه: حقيق بأن لا أقول على الله إلا الحق، أي جدير بذلك وحرّي به، قالوا: والباء وعلى يتعاقبان، يقال: رميت بالقوس، وعلى القوس، وجاء على حال حسنة، وبحال حسنة. وقال بعض المفسرين: معناه حريص على أن لا أقول على الله إلا الحق. ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي بحجة قاطعة من الله أعطانها دليلاً على صدقي فيما جئتكم به ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي

أطلقهم من أسرك وقهرك، ودعهم وعبادة ربك وربهم، فإنهم من سلالة نبي كريم، وهو يعقوب بن إسحق بن إبراهيم خليل الرحمن.

﴿قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِثَآئِفَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ ۝۱۱۶﴾ .

أي قال فرعون: لست بمصدقك فيما قلت، ولا بمطيعك فيما طلبت، فإن كانت معك حجة فأظهرها لئراها إن كنت صادقاً فيما ادّعت.

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۝۱۱۷﴾ .

﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ الحية الذكر، أي تحولت عصاه إلى حية عظيمة فاغرة فاها مسرعة إلى فرعون. فلما رآها فرعون أنها قاصدة إليه اقتحم عن سريرته واستغاث بموسى أن يكفه عنه ففعل.

﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظَرِیْنَ ۝۱۱۸﴾ .

أي أخرج يده من درعه بعدما أدخلها فيه، فإذا هي بيضاء تتلألاً من غير برص ولا مرض، كما قال تعالى ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرِّجْ بَيْضَاءً مِّنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ [النمل: 12].

﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ۝۱۱۹﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ۝۱۲۰﴾ .

أي قال الملأ، وهم الجمهور والسادة من قوم فرعون موافقين لقول فرعون فيه بعدما رجع إليه روعه، واستقر على سرير مملكته بعد ذلك، قال للملأ حوله ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾ فوافقوه، وقالوا كمقالته، وتشاوروا في أمره كيف يصنعون، وكيف تكون حيلتهم في إطفاء نوره وإخماد كلسته، وظهور كذبه وإفترائه، وتخوفوا أن يستميل الناس بسحره، فيكون ذلك سبباً لظهوره عليهم، وإخراجه إياهم من أرضهم والذي خافوا منه وقعوا فيه ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَمُّنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمَا مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: 6] فلما تشاوروا في شأنه، واثمروا بما فيه اتفق رأيهم على ما حكاها الله تعالى عنهم في قوله:

﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝۱۲۱﴾ يَا تَوَكُّلْ بِكُلِّ سَحَرٍ عَلِيمٍ ۝۱۲۲﴾ .

﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ...﴾ قال ابن عباس: ﴿أَرْجِهْ﴾ أخره، وقال قتادة: أحبسه. ﴿وَأَرْسِلْ﴾ أي ابعث ﴿وَالْمَدَآئِنِ﴾ أي في الأقاليم ومدائن ملكك ﴿حَٰشِرِينَ﴾ أي من يحشر لك السحرة من سائر البلاد، ويجمعهم، وقد كان السحر في زمانهم غالباً كثيراً ظاهراً، واعتقد من اعتقد منهم، وأوهم من أوهم منهم أن ما جاء به موسى ﷺ من قبيل ما تشعبه سحرتهم، فلهذا جمعوا له السحرة ليعارضوه بنضير ما أراهم من البينات.

﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٢﴾﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾ .

يخبر تعالى عما تشارط عليه فرعون والسحرة الذين استدعاهم لمعارضة موسى عليه السلام إن غلبوا موسى ليشينهم، وليعطيهم عطاء جزيلاً، فوعدهم ومناهم أن يعطيهم ما أرادوا ويجعلهم من جلسائه والمقربين عنده، فلما توثقوا من فرعون لعنه الله:

﴿قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَهْبَهُهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾ .

﴿قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى...﴾ هذه مبارزة من السحرة لموسى عليه السلام في قولهم: ﴿إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ أي قبلك، فقال لهم موسى: ﴿أَلْقُوا﴾ أي أنتم أولاً، قيل: الحكمة في هذا والله أعلم ليرى الناس صنيعهم ويتأملوه، فإذا فرغوا من يهرجهم ومحالهم جاءهم الحق الواضح الجلي بعد التطلب له والانتظار منهم لمجيئه، فيكون أوقع في النفوس، وكذا كان، ولهذا قال: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ...﴾ أي خيلوا إلى الأبصار أن ما فعلوه حقيقة في الخارج، ولم يكن إلا مجرد صنعة وخيال.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ إِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾﴾ فَوَقَّعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ فَعَلِبُوا هُنَاكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ ﴿١١٩﴾﴾ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ قَالُوا ءَأَمْنَا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ .

يخبر تعالى أنه أوحى إلى عبده موسى عليه السلام في ذلك الموقف العظيم الذي فرق الله تعالى فيه بين الحق والباطل، يأمره بأن يلقي ما في يمينه، وهي عصاه ﴿إِذَا هِيَ تَلْقَفُ﴾ أي تأكل ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ أي ما يلقونه، ويوهمون أنه حق، وهو باطل فجعلت لا تمر بشيء من حبالهم، ولا من خشبهم إلا التقمته، فعرفت السحرة أن هذا شيء من السماء، ليس هذا بسحر فخرؤا سجداً ﴿قَالُوا ءَأَمْنَا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ قال ابن إسحاق: جعلت عصا موسى تتبع تلك الحبال والعصي واحدة واحدة حتى ما يرى بالوادي قليل أو كثير مما ألقوا، ثم أخذها موسى فإذا هي عصا في يده كما كانت، ووقع السحرة سجداً قالوا: لو كان هذا ساحراً ما غلبنا. وقال القاسم بن أبي برة: أوحى الله إليه أن ألق عصاك فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبین فاغرفاه، يبتلع حبالهم وعصيتهم، فألقى السحرة عند ذلك سجداً، فما رفعوا رؤوسهم حتى رأوا الجنة والنار، وثواب أهلها.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكْرَتُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ﴿١٢٣﴾﴾ فَسَوْفَ نَعْمُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ .

يخبر تعالى عما توعد به فرعون - لعنه الله - السحرة لما آمنوا بموسى عليه السلام ، وما أظهره للناس من كيده ومكره في قوله ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكْرْتُهُ...﴾ أي إن غلبته لكم في يومكم هذا إنما كان عن تشاور منكم، ورضا منكم لذلك، كقوله: ﴿إِنَّهُ لَكَيْدٌ كُذِّبَتْ لَكُمُ اللَّيْلُ عَلَى نَوْمِكُمْ أَلَيْسَ فِي ذَلِكَ سَاحِرٌ كَذِبٌ﴾ [طه: 71] وهو يعلم، وكل من له لب أن هذا الذي قاله من أبطل الباطل، فإن موسى بمجرد ما جاء من مدين دعا فرعون إلى الله، وأظهر المعجزات الباهرة، والحجج القاطعة على صدق ما جاء به، فعند ذلك أرسل فرعون في مدائن ملكه، ومعاملته سلطته فجمع سحرة متفرقين من سائر الأقاليم ببلاد مصر ممن اختار هو والملا من قومه، وأحضروهم عنده، ووعدهم بالعطاء الجزيل، ولهذا قد كانوا من أحرص الناس على ذلك، وعلى الظهور في مقامهم ذلك، والتقدم عند فرعون، وموسى عليه السلام لا يعرف أحداً منهم، ولا رآه، ولا اجتمع به، وفرعون يعلم ذلك، وإنما قال هذا تستراً وتدليساً على رعا دولته وجهلهم كما قال تعالى: ﴿فَأَسْحَفَتْ قَوْمَهُ فَأَخَادَهُمُ﴾ [الزخرف: 54] فإن قوماً صدقوه في قوله ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: 24] من أجهل خلق الله وأضلهم. وقوله: ﴿لَنُخْرِجَنَّ عَنْهَا أَهْلَهَا﴾ أي تجتمعوا أنتم وهو، وتكون لكم دولة وصوله، وتخرجوا منها الأكابر والرؤساء، وتكون الدولة والتصرف لكم ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي ما أصنع بكم، ثم فسر هذا الوعيد بقوله:

﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلْفٍ ثُمَّ لأَصْلِيَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (١٢٤).

﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلْفٍ﴾ يعني قطع يد الرجل اليمنى، ورجله اليسرى أو بالعكس ﴿لَأَصْلِيَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وكان أول من صلب، وأول من قطع الأيدي والأرجل من خلاف.

﴿قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ (١٢٥).

﴿قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ أي قد تحققنا أنا إليه راجعون، وعذابه أشد من عذابك، ونكاله على ما تدعوننا إليه اليوم، وما أكرهتنا عليه من السحر أعظم من نكالك، فلنصبرن على عذابك لنخلص من عذاب الله، ولهذا قالوا:

﴿وَمَا لَنُفِيقَ مِنَّا إِلَّا أَنْتَ ءَامَنَّا بِآيَاتِكَ رَبَّنَا لَمَّا جَاءَنَا رَبَّنَا أَرْغَبْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ (١٢٦).

﴿رَبَّنَا أَرْغَبْنَا صَبْرًا﴾ أي عمنا بالصبر على دينك والثبات عليه. ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ أي متابعين لنبيك موسى عليه السلام وقالوا لفرعون: ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (١٢٦) إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَتَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَبَقِي (١٢٦) [طه: 72، 73]. فكانوا في أول النهار سحرة، فصاروا في آخره شهداء برة.

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ مُوسَى وَقَوْمُهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكِ وَالْهَتَكَ قَالَ سَنُقْبِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ (١٢٧).

يخبر تعالى عما تمالأ عليه فرعون وملؤه، وما أضمره لموسى عليه السلام وقومه من الأذى والبغضة

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ أي لفرعون ﴿أَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ﴾ أي أُنذِهم ليفسدوا في الأرض، أي يفسدوا أهل رعيته، ويدعوهم إلى عبادة ربهم دونك، يا لله العجب!! صار هؤلاء يشفقون من إفساد موسى وقومه، ألا إن فرعون وقومه هم المفسدون، ولكن لا يشعرون، ولهذا قال: ﴿وَيَذَرُكَ وَآلِهَتَهُ﴾، قال الحسن البصري: كان لفرعون إله يعبد في السر ﴿قَالَ سَتَقُلُّ أَبْنَاءَهُمْ وَتَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ وهذا أمر ثان بهذا الصنيع، وقد كان نكل بهم قبل ولادة موسى عليه السلام حذراً من وجوده، فكان خلاف ما رام وضد ما قصده فرعون، وهكذا عومل صنيعه أيضاً لما أراد إذلال بني إسرائيل وقهرهم فجاء الأمر على خلاف ما أراد، أعزهم الله وأذله، وأرغم أنفه وأغرقه وجنوده.

﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١٢٨).

ولما صمم فرعون على ما ذكره من المساءة لبني إسرائيل ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا﴾ ووعدهم بالعاقبة، وأن الدار ستصير لهم في قوله: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا﴾.

﴿قَالُوا أَوَإِذَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (١٢٩).

أي قد فعلوا بنا مثل ما رأيت من الهوان والاذلال من قبل ما جئت يا موسى ومن بعد ذلك، فقال منبهاً لهم على حالهم الحاضر، وما يصيرون إليه في ثاني الحال ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ...﴾ وهذا تحضيض لهم على العزم على الشكر عند حلول النعم، وزوال النقم.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ (١٣٠).
يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ أي اختبرناهم وامتحانهم وابتليناهم ﴿بِالسِّنِينَ﴾ وهي سنو الجوع بسبب قلة الزروع ﴿وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ وهو دون ذلك، فقد كانت النخلة لا تحمل إلا ثمرة واحدة ﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾.

﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٣١).

﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ﴾ من الخصب والرزق ﴿قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾ أي هذا لنا بما نستحقه ﴿وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أي جذب وقحط ﴿يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ أي هذا بسببهم وما جاؤا به ﴿أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ مصائبهم عند الله، أو من قبل الله.

﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا تَخُنْ لَكَ بِمُؤْمِنِيكَ﴾ (١٣٢).
هذا إخبار من الله عز وجل عن تمرد قوم فرعون وعتوهم وعنادهم للحق، وإصرارهم على الباطل

في قولهم: ﴿مَهْمَا تَأْنَبَا يَوْمَ مِنْ أَيْمَةٍ لَسْتَحَرَّكَ بِهَا...﴾ يقولون: أي آية جئتنا بها ودلالة وحجة أقمتها ردناها، فلا نقبلها منك، ولا نؤمن بك، ولا بما جئت به.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْذَّمَ أَيْدِي مُفْصَلَتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا تُجْرِمُونَ﴾ (١٣٣).

﴿الطُّوفَانُ﴾ كثرة الأمطار المتلفة للزروع والثمار، أو هو كثرة الموت أو هو الماء والطاعون على كل حال، وروى ابن جرير عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «الطوفان الموت». وقال ابن عباس في رواية: هو أمر من الله طاف بهم، ثم قرأ ﴿طَلَّكَ عَلَيْهَا مَلَأَتْ مِنْ رَبِّكَ وَهِيَ تَابُوتٌ﴾ (١٣٣) [القلم: 133] ﴿وَالْجَرَادُ﴾ معروف مشهور، وهو مأكول لما ثبت في الصحيحين عن أبي يعفور قال: سألت عبد الله بن أبي أوفى عن الجراد، فقال: «غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات نأكل الجراد». وروى الشافعي وأحمد بن حنبل وابن ماجه والبخاري عن النبي ﷺ «أحلت لنا ميتتان ودمان: الحوت والجراد، والكبد والطحال». وروى أبو داود «أن رسول الله ﷺ سئل عن الجراد فقال: «أكثر جنود الله، لا أكله ولا أحرمه» وإنما تركه عليه الصلاة والسلام لأنه كان يعافه كما عافت نفسه الشريفة أكل العنب وأذن فيه». ﴿وَالْقُمَّلُ﴾ فعن ابن عباس هو السوس الذي يخرج من الحنطة، وعنه أنه الدبا، وهو الجراد الصغار الذي لا أجنحة له، وقيل: هو البراغيث. ﴿وَالضَّفَادِعُ﴾ كان الرجل يجلس إلى ذقته في الضفادع، ويهم أن يتكلم فيشب الضفدع في فيه ﴿وَالذَّمُّ﴾ فكانوا ما استقوا من الأنهار والآبار وما كان في أوعيتهم وجدوه دماً عبيطاً.

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا لِمُوسَى اذْعُ لَنَا رَبِّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ (١٣٤).
﴿لَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا لِمُوسَى اذْعُ لَنَا رَبِّكَ...﴾ فدعا موسى ربه فكشف عنهم، فلم يفوا له بشيء مما قالوا.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَلِّغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ﴾ (١٣٥) ﴿فَأَنقَضْنَا مِنْهُمْ فَاغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ (١٣٦).

يخبر تعالى أنهم لما عتوا وتمردوا مع ابتلائه إياهم بالآيات المتواترة واحدة بعد واحدة انتقم منهم بإغراقه إياهم في اليم وهو البحر الذي فرقه لموسى فجاوزه وبنو إسرائيل معه، ثم ورده فرعون وجنوده على أثرهم، فلما استكملوا فيه ارتطم عليهم فغرقوا عن آخرهم، وذلك بسبب تكذيبهم بآيات الله وتغافلهم عنها.

﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمغربَهَا أَلَيْسَ بَرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ

كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ .

وأخبر تعالى أنه أورث القوم الذين ﴿كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ﴾ وهم بنو إسرائيل ﴿مَشْرِكَ الْأَرْضِ وَمَعْرِبَهَا﴾ كما قال تعالى: ﴿وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: 5، 6] وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَرْكُزُهُ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَارٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَ كَانُوا فِيهَا فِتْكَيْنَ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [الدخان: 25 - 28] وعن الحسن البصري وقتادة في قوله ﴿مَشْرِكَ الْأَرْضِ وَمَعْرِبَهَا﴾ أي بركننا فيها يعني الشام وقوله ﴿وَكَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ قال مجاهد وابن جريج: وهي قوله تعالى: ﴿وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: 5] وقوله: ﴿وَدَمَرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾ أي وضربنا ما كان فرعون وقومه يصنعونه من العمارات والمزارع ﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ بينون.

﴿وَجَنَوزَنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَاتَوَّا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَانٍ لَهُمْ قَالُوا يَلْمُوسَىٰ أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ ﴿١٣٨﴾ .

يخبر تعالى عما قاله جهلة بني إسرائيل لموسى ﷺ حين جاوزوا البحر، وقد رأوا من آيات الله وعظيم سلطانه ما رأوا ﴿فَاتَوَّا﴾ أي فمروا ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَانٍ لَهُمْ﴾ كانوا يعبدون أصناماً على صور البقر، فلهذا أثار ذلك شبهة لهم في عبادتهم العجل بعد ذلك ﴿قَالُوا يَلْمُوسَىٰ أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ أي تجهلون عظمة الله وجلاله، وما يجب أن يتزهد عنه من الشريك والمثيل.

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٣٩﴾ .

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي هالك ﴿وَنَبِّئْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ روى الإمام أحمد عن أبي واقد الليثي قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين، فمررنا بسدرة، فقلت: يا نبي الله، اجعل لنا هذه ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط - وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة ويعكفون حولها - فقال النبي ﷺ: «الله أكبر، هذا ما قاله بنو إسرائيل لموسى ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: 138] إنكم تركبون سنن من قبلكم».

﴿قَالَ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْنِيَكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أُنْجِيتُكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ .

يذكرهم موسى ﷺ نعم الله عليهم من إنقاذهم من أسر فرعون وقهره، وما كانوا فيه من الهوان والذلة، وما صاروا إليه من العزة والاشتفاء من عدوهم والنظر إليه في حال هوانه وهلاكه وغرقه ودماره.

﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْنٍ مِيقَتُ رَبِّهِ أَزْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلِفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٤٢).

يقول تعالى ممتناً على بني إسرائيل بما حصل لهم من الهداية بتكليمه موسى ﷺ، وإعطائه التوراة، وفيها أحكامهم وتفصيل شرعهم، فذكر تعالى أنه واعد موسى ثلاثين ليلة، قال المفسرون: فصامها موسى ﷺ، وطواها، فلما تم الميقات استاك بلحاء شجر، فأمره الله تعالى أن يكمل بعشر أربعين، وقد اختلف المفسرون في هذه العشر ما هي؟ فالأكثر على أن الثلاثين هي ذو القعدة والعشر عشر ذي الحجة، فعلى هذا يكون قد كمل الميقات يوم النحر، وحصل فيه التكليم لموسى ﷺ، وفيه أكمل الله الدين لمحمد ﷺ، كما قال تعالى: ﴿أَيُّومَ أَكَمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: 3] فلما تم الميقات، وعزم موسى على الذهاب إلى الطور استخلف موسى على بني إسرائيل أخاه هارون ووصاه بالإصلاح وعدم الإفساد، وهذا تنبيه وتذكير، وإلا فهارون ﷺ نبي شريف كريم على الله، له وجاهة وجلالة، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء.

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَنِّي فُلَمَّا بَجَلَى رَبُّهُ لَلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ بُتْ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٣).

يخبر تعالى عن موسى ﷺ أنه لما جاء لميقات الله وحصل له التكليم من الله سأل الله تعالى أن يطر إليه ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَنِّي﴾ وقد أشكل حرف ﴿لَنْ﴾ ههنا على كثير من العلماء لأنها موضوعة لنفي التأييد فاستدل به المعتزلة على نفي الرؤية في الدنيا والآخرة، وهذا أضعف الأقوال لأنه قد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بأن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة، والله يقول: ﴿وَبُيِّنَ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ﴾ (٢٢) ﴿إِنْ يَرَوْهَا غُطْرَةً﴾ (٢٣) [القيامة: 22، 23] وقيل: إنها ﴿لَنْ﴾ لنفي التأييد في الدنيا جمعاً بين هذه الآية ﴿لَنْ تَرَنِّي...﴾ وبين الدليل القاطع على صحة الرؤية في الدار الآخرة، وفي الكتب المتقدمة أن الله تعالى قال لموسى ﷺ «يا موسى إنه لا يراني حي إلا مات، ولا يابس إلا تدهده» ولهذا قال ﴿فُلَمَّا بَجَلَى رَبُّهُ لَلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ تراباً ﴿وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ مغشياً عليه! ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ﴾ والإفاقة لا تكون إلا عن غشي ﴿قَالَ سُبْحَنَكَ﴾ تنزيهاً وتعظيماً وإجلالاً أن يراه أحد في الدنيا إلا مات. وقوله ﴿بُتْ إِلَيْكَ﴾ قال مجاهد: أن أسألك الرؤية ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ من بني

إسرائيل، أو أنه لا يراك أحد من خلقك إلى يوم القيامة. روى الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة قال: استب رجلان: رجل من المسلمين، ورجل من اليهود، فقال المسلم: والذي اصطفى محمداً على العالمين، فقال اليهودي: والذي اصطفى موسى على العالمين، فغضب المسلم على اليهودي فلطمه، فأتى اليهودي رسول الله ﷺ فسأله فأخبره فدعاه رسول الله ﷺ فاعترف بذلك، فقال رسول الله ﷺ: «لا تخيروني على موسى فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق، فإذا موسى ممسك بجانب العرش، فلا أدري أكان ممن صعق فأفاق قبلي، أم كان ممن استثنى الله عز وجل؟» أخرجه في الصحيحين من حديث الزهري. والكلام في قوله ﷺ «لا تخيروني على موسى» كالكلام على قوله «لا تفضلوني على الأنبياء، ولا على يونس بن متى» قيل: من باب التواضع، وقيل: قبل أن يعلم بذلك، وقيل: نهى أن يفضل بينهم على وجه الغضب والتعصب.

﴿قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلِمَاتِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (١٤٤).

يذكر تعالى أنه خاطب موسى بأن اصطفاه على أهل زمانه برسالاته تعالى وبكلامه، ولا شك أن محمداً ﷺ سيد ولد آدم من الأولين والآخرين، ولهذا اختصه تعالى بأن جعله خاتم الأنبياء والمرسلين الذي تستمر شريعته إلى قيام الساعة، وأتباعه أكثر من أتباع سائر الأنبياء والمرسلين كلهم، وبعده في الشرف والفضل إبراهيم الخليل عليه السلام، ثم موسى بن عمران كلهم الرحمن عليه السلام، ولهذا قال ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ﴾ أي من الكلام والمناجاة ﴿وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أي على ذلك ولا تطلب ما لا طاقة لك به.

﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ (١٤٥).

ثم أخبرنا تعالى أنه كتب له ﴿فِي الْأَلْوَابِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ وكانت هذه الألواح مشتملة على التوراة، وقيل: الألواح أعطيها موسى قبل التوراة، وعلى كل حال فكانت كالتعويض له عما سأل من الرؤية ومنع منها ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ أي بعزم على الطاعة ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ عن ابن عباس قال: أمر موسى أن يأخذ بأشد ما أمر به قومه ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي سترون عاقبة من خالف أمري، وخرج عن طاعتي كيف يصير إلى الهلاك والدمار والثبات، وهذا على وجه التهديد والوعيد لمن عصاه وخالف أمره.

﴿سَأَصْرِفُ عَن آيَاتِي الَّذِينَ يَكْفُرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغِيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ (١٤٦).

أي سأمع فهم الحجج والأدلة الدالة على عظمتي وشريعتي وأحكامي قلوب المتكبرين عن طاعتي، ويتكبرون على الناس بغير حق أي كما استكبروا بغير حق أذلهم الله بالجهل كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: 110] وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا أَرْعَاقَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: 5]. وقال بعض السلف: لا ينال العلم حي ولا مستكبر، وقال آخر: من لم يصبر على ذل التعلم ساعة بقي في ذل الجهل أبداً، عن سفيان بن عيينة في قوله ﴿سَاصِرُفٌ عَنَّا يَتَى...﴾ قال: أنزع عنهم فهم القرآن وأصرفهم عن آياتي وقوله ﴿وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ أَيْتٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [٩٦] وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: 96، 97] وقوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا...﴾ أي وإن ظهر لهم سبيل الرشd، أي طريق النجاة لا يسلكوه، وإن ظهر لهم طريق الهلاك والضلال يتخذوه سبيلاً، ثم علل مصيرهم إلى هذه الحال بقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي كذبت بها قلوبهم ﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ أي لا يعملون بما فيها.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِفَكَاءِ الْآخِرَةِ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [٤٧].

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا...﴾ أي من فعل منهم ذلك واستمر عليه إلى الممات حبط عمله ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي إنما نجازيهم بحسب أعمالهم التي أسلفوها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وكما تدين تدان.

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجَلًا جَسَداً لَهُمْ خُورٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [٤٨].

يخبر تعالى عن ضلال من ضل من بني إسرائيل في عبادتهم العجل الذي اتخذ لهم السامري من حلي اقبط الذي كانوا استعاروه منهم فشكل لهم منه عجلاً، ثم ألقى فيه القبضة من التراب التي أخذها من أثر فرس جبريل عليه السلام، فصار عجلاً جسداً له خوار، والخوار صوت البقر، وكان هذا منهم بعد ذهاب موسى لميقات ربه تعالى، فأعلمه الله تعالى بذلك، وهو على الطور حيث قال تعالى إخباراً عن نفسه الكريمة: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ [طه: 85] ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ ينكر تعالى عليهم في ضلالهم بالعجل وذهولهم عن خالق السموات والأرض، ورب كل شيء ومليكه أن عبدوا معه عجلاً جسداً له خوار، لا يكلمهم ولا يرشدهم إلى خير، ولكن غطى على عين بصائرهم عمى الجهل والضلال، وقد روى الإمام أحمد عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «حبك الشيء يعمي ويصم».

﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ﴿١٤٩﴾ .

﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ أي ندموا على ما فعلوا، ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي من الهالكين، وهذا اعتراف منهم بذنبهم والتجاء إلى الله عز وجل .

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضَبَنَ أَسِيفًا قَالَ يَسْمَا خَلَفْتُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَالْقَى الْأَلْوَحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمِّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿١٥٠﴾ .

يخبر تعالى أن موسى عليه السلام لما رجع إلى قومه من مناجاة ربه تعالى، وهو غضبان أسف - والأسف أشد الغضب - ﴿قَالَ يَسْمَا خَلَفْتُونِي مِنْ بَعْدِي﴾ يقول: بشما صنعتم في عبادتكم العجل بعد أن ذهبت وتركتكم. وقوله: ﴿أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ يقول: استعجلتم مجيئي إليكم، وهو مقدر من الله تعالى وقوله: ﴿وَالْقَى الْأَلْوَحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ في هذا دلالة على ما جاء في الحديث «ليس الخبر كالمعاينة» ثم ظاهر السياق أنه إنما ألقى الألواح غضباً على قومه. وقوله ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ خوفاً أن يكون قد قصر في نهيهم ﴿قَالَ ابْنَ أُمِّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي لا تسقني مساقهم، ولا تخلطني معهم، وإنما قال: ﴿ابْنَ أُمِّ﴾ ليكون أرق وأنجع عنده، وإلا فهو شقيقه لأبيه وأمه، فلما تحقق موسى عليه السلام براءة ساحة هارون عليه السلام كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقَوْمُ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ﴾ ﴿٩٠﴾ [طه: 90] فعند ذلك:

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ﴿١٥١﴾ .

﴿قَالَ﴾ موسى ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «يرحم الله موسى ليس المعاین كالمخبر، أخبره ربه عز وجل أن قومه فتنوا بعده فلم يلق الألواح، فلما رآهم وعانينهم ألقى الألواح» .

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ ﴿١٥٢﴾ .

أما الغضب الذي نال بني إسرائيل في عبادة العجل، فهو أن الله تعالى لم يقبل لهم توبة حتى قتل بعضهم بعضاً ﴿فَتَوَبَّوْا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 54] وأما الذلة فأعقبهم ذلك ذلاً وصغاراً في الحياة الدنيا. وقوله ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ نائلة لكل من افترى بدعة، فإن ذل البدعة، ومخالفة الرشاد متصلة من قلبه على كتفيه،

كما قال الحسن البصري: إن ذل البدعة على أكتافهم، وإن هملجت بهم البغلات، وطققت بهم البراذين. وقال أبو قلابة الجرمي في هذه الآية: هي والله لكل مفترٍ إلى يوم القيامة، وقال سفيان بن عيينة: كل صاحب بدعة ذليل.

﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥٢﴾﴾.

ثم نبه عباده تعالى وأرشدهم إلى أنه يقبل توبة عباده من أي ذنب كان، حتى ولو كان من كفر أو شرك أو نفاق أو شقاق فقال: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا﴾ أي يا محمد، يا رسول التوبة ونبى الرحمة ﴿مِنْ بَعْدِهَا﴾ أي من بعد تلك الفعللة ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وقد سئل ابن مسعود عن الرجل يزني بالمرأة ثم يتزوجها، فتلا هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ...﴾ فتلاها عبد الله بن مسعود عشر مرات، فلم يأمرهم بها ولم ينههم عنها.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَابَ وَفِي سُحَّتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَزْهَبُونَ ﴿١٥٣﴾﴾.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ﴾ أي سكن ﴿عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ﴾ أي غضبه على قومه ﴿أَخَذَ الْأَلْوَابَ﴾ أي التي كان ألقاها من شدة الغضب على عبادتهم العجل غيرة لله وغضباً له ﴿وَفِي سُحَّتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَزْهَبُونَ﴾ قال قتادة: قال موسى: رب إني أجد في الألواح أمة خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فاجعلهم أمتي، قال: تلك أمة أحمد، قال: رب إني أجد في الألواح أمة هم الآخرون السابقون، أي آخرون في الخلق، سابقون في دخول الجنة، رب اجعلهم أمتي، قال: تلك أمة أحمد، قال: رب إني أجد في الألواح أمة أناجيلهم في صدورهم يقرؤونها... قال: رب اجعلهم أمتي، قال: تلك أمة أحمد. قال: رب إني أجد في الألواح أمة إذا هم أحدهم بحسنة ثم لم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشر أمثالها إلى سبعمائة رب اجعلهم أمتي، قال: تلك أمة أحمد، قال: رب، إني أجد في الألواح أمة هم المشفعون والمشفوع لهم فاجعلهم أمتي، قال: تلك أمة أحمد. قال قتادة: فذكر لنا أن نبي الله موسى ﷺ نبذ الألواح، وقال: اللهم اجعلني من أمة أحمد.

﴿وَأَخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَائْتِي أَتْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٤﴾﴾.

كن الله أمره أن يختار من قومه سبعين رجلاً فاختر سبعين رجلاً، فبرزهم ليدعوا ربهم، وكان فيما دعوا الله أن قالوا: أعطنا ما لم تعطه أحداً قبلنا، ولا تعطه أحداً بعدنا، فكره ذلك من دعائهم فاخذتهم الرجفة، وعن السدي قالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: 55] فاخذتهم

الصاعقة فماتوا، فقام موسى يبكي ويدعو الله، ويقول: رب ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم، وقد أهلك خيارهم ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَارِثِي أَهْلِكَ بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ يَتَّى إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ أي ابتلاؤك واختبارك وامتحانك، يقول: إن الأمر إلا أمرك، وإن الحكم إلا لك، فما شئت كان، ﴿تُفِضُ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ...﴾ ولا هادي لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطي لمن منعت، ولا مانع لما أعطيت، فالملك كله لك، والحكم كله لك، لك الخلق والأمر ﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾ الغفر هو الستر وترك المواخذة بالذنب، والرحمة إذا قرنت مع الغفر يراد بها أن لا يوقعه في مثله في المستقبل ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ أي لا يغفر الذنب إلا أنت.

﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا إِلَيْكَ قَالِ عَذَابِي أَصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾.

﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أي أوجب لنا، وأثبت لنا فيهما حسنة ﴿إِنَّا هُنَا إِلَيْكَ﴾ أي تبنا ورجعنا، وأنبأ إليك. ﴿قَالَ عَذَابِي أَصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ...﴾ أي أفعل ما أشاء، وأحكم ما أريد، ولي الحكمة والعدل في كل ذلك، سبحانه لا إله إلا هو. وقوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ آية عظيمة الشمول والعموم، كقوله تعالى إخباراً عن حملة العرش ومن حولهم إنهم يقولون ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: 7]. روى الإمام أحمد عن عبد الله الجبلي رضي الله عنه قال: جاء أعرابي فأناخ راحلته ثم علفها، ثم صلى خلف رسول الله ﷺ، فلما صلى رسول الله ﷺ أتى راحلته فأطلق عقالها، ثم ركبها، ثم نادى اللهم ارحمني ومحمداً، ولا تشرك في رحمتنا أحداً، فقال رسول الله ﷺ: «أتقولون هذا أضل أم بعيره، ألم تسمعوا ما قال؟» قالوا: بلى، قال: «لقد حظرت رحمة واسعة، إن الله خلق مائة رحمة، فأنزل رحمة يتعاطف بها الخلق: جنها وإنسها وبهائمها، وآخر عنده تسعاً وتسعين رحمة، أتقولون هو أضل أم بعيره؟». وقوله ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ يعني فسأوجب حصول رحمتي منه مني وإحساناً إليهم، ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أي للمتصفين بهذه الصفات وهم أمة محمد ﷺ ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أي الشرك وعظائم الذنوب، قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: 54] وقوله: ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ قيل: زكاة النفوس، وقيل: الأموال، ويحتمل أن تكون عامة لهما فإن الآية مكية ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي يصدقون.

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ...﴾ وهذه صفة محمد ﷺ في كتب الأنبياء، بشروا أممهم ببعثه، وأمروهم بمتابعته، ولم تزل صفاته موجودة في كتبهم، يعرفها علماءهم وأخبارهم. روى الإمام أحمد عن أبي صخر العقيلي، قال: حدثني رجل من الأعراب، قال: جلبت حلوية إلى المدينة في حياة رسول الله ﷺ، فلما فرغت من بيعي، قلت: لألقين هذا الرجل، فلاسمعن منه، قال: فتلقتني بين أبي بكر وعمر يمشون، فتبعتهما حتى أتوا على رجل من اليهود ناشر التوراة يقرؤها، يعزي بها نفسه عن ابن له في الموت كأجل الفتيان وأحسنها، فقال رسول الله ﷺ: «أنشدك بالذي أنزل التوراة هل تجد في كتابك هذا صفتي ومخرجي؟» فقال برأسه: هكذا، أي لا، فقال ابنه: إي والذي أنزل التوراة إنا لنجد في كتابنا صفتك ومخرجك، وإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك رسول الله فقال: «أقيموا اليهودي عن أخيكم» ثم تولى كفه والصلاة عليه. هذا حديث قوي له شاهد في الصحيح عن أنس. وقوله تعالى ﴿يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ هذه صفة رسول الله ﷺ في الكتب المتقدمة، وهكذا كانت حاله عليه الصلاة والسلام لا يأمر إلا بخير، ولا ينهى إلا عن شر كما قال عبد الله بن مسعود: إذا سمعت الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: 104] فأرעה سمعك، فإنه خير تؤمر به، أو شر تنهى عنه، ومن أهم ذلك وأعظم ما بعثه الله به من الأمر بعبادته وحده لا شريك له والنهي عن عبادة من سواه، كما أرسل به جميع الرسل ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: 36] وقوله: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ أي يحل لهم ما كانوا حرموه على أنفسهم من البحائر والسوائب والوصائل والحام، ونحو ذلك مما كانوا ضيقوا به على أنفسهم، ويحرم عليهم الخبائث كلحم الخنزير والربا، وما كانوا يستحلونه من المحرمات من المأكَل التي حرمها الله تعالى، فكل ما أحل الله من المأكَل فهو طيب نافع في البدن والدين، وكل ما حرمه الله فهو خبيث ضار في البدن والدين ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ أي أنه جاء بالتيسير والسماحة، وفي الحديث «بعثت بالحنيفية السمحة» وقال ﷺ لأمره: معاذ وأبي موسى الأشعري لما بعثهما إلى اليمن: «بشرا ولا تنفرا ويسرا ولا تعسرا، وتطاوعا ولا تختلعا»، وفي الحديث: «إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل» وقال: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» ولهذا قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِمْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 286]. وقوله ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾ أي عظموه ووقروه ﴿وَأَتَّبَعُوا النَّوْرَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾ أي القرآن والوحي الذي جاء به مبلغاً إلى الناس ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ أي في الدنيا والآخرة.

﴿قُلْ يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا

إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ، وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ .

﴿قُلْ يَتَذَكَّرُ النَّاسُ﴾ وهو خطاب للأحمر والأسود، والعجمي والعربي ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ أي جميعكم وهذا من شرفه وعظمته ﷺ أنه خاتم النبيين، وأنه مبعوث إلى الناس كافة، كما قال تعالى ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ لِتُذَكِّرَ بِهِ مَنِ بَلَغَ﴾ [الأنعام: 19] في البخاري عن أبي الدرداء يقول: كانت بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما محاوراة، فأغضب أبو بكر عمر، فانصرف عنه عمر مغضباً، فاتبعه أبو بكر يسأله أن يستغفر له، فلم يفعل حتى أغلق بابه في وجهه، فأقبل أبو بكر إلى رسول الله، فقال أبو الدرداء: ونحن عنده، فقال رسول الله ﷺ: «أما صاحبكم هذا فقد غامر» أي غاضب وحافد، قال: وندم عمر على ما كان منه، فأقبل حتى سلم وجلس إلى النبي ﷺ، وقص على رسول الله ﷺ الخبر، قال أبو الدرداء: فغضب رسول الله ﷺ! وجعل أبو بكر يقول: والله يا رسول الله، لأننا كنت أظلم، فقال رسول الله ﷺ: «هل أنتم تاركوا لي صاحبي؟» إني قلت: ﴿يَتَذَكَّرُ النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ فقلت كذبت، وقال أبو بكر: «صدقت» انفرده به البخاري. وروى الإمام أحمد عن ابن عباس مرفوعاً أن رسول الله ﷺ قال: «أعطيت خمساً لم يعطهن نبي قبلي، ولا أقوله فخراً: بعثت إلى الناس كافة الأحمر والأسود، ونصرت بالرعب مسيرة شهر، وأحلت لي الغنائم، ولم تحل لأحد قبلي، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأعطيت الشفاعة فأخترتها لأمتي يوم القيامة، فهي لمن لا يشرك بالله شيئاً» إسناده جيد ولم يخرجوه. وفي صحيح مسلم: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي رجل من هذه الأمة: يهودي ولا نصراني، ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار». وقوله: ﴿الَّذِي لَمْ يَمْلِكْ أَلْسِنَاتٍ وَالْأَرْضَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ صفة الله تعالى في قول رسول الله ﷺ أي الذي أرسلني هو خالق كل شيء ورب ومليكه الذي بيده الملك والإحياء والإماتة وله الحكم، ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أخبرهم أنه رسول الله إليهم، ثم أمرهم باتباعه والإيمان به ﴿النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾ أي الذي وعدتم به، وبشرتم به في الكتب المتقدمة فإنه منعوت بذلك في كتبهم، ولهذا قال ﴿النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾ وقوله: ﴿الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾ أي يصدق قوله عمله، وهو يؤمن بما أنزل إليه من ربه ﴿وَاتَّبِعُوهُ﴾ أي اسلكوا طريقه واقتفوا أثره ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي إلى الصراط المستقيم.

﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ ﴿١٥٩﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن بني إسرائيل أن منهم طائفة يتبعون الحق ويعدلون به، كما قال تعالى: ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: 113].

﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَلَهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ

بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَأَبْجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَزَلَّنا عَلَيْهِمُ السَّمَّ وَالسَّلَوى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١١٢﴾ .

تقدم تفسيره في سورة البقرة رقم ٥٩ إلى رقم ٦١.

﴿وَسَلَّمْتُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ ﴿١١٣﴾ .

يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَسَلَّمْتُمْ﴾ أي وأسأل هؤلاء اليهود الذين بحضرتك عن قصة أصحابهم الذين خالفوا أمر الله، ففاجأهم نقمته على صنيعهم واعتدائهم واحتيالهم في المخالفة، وحذر هؤلاء من كتمان صفتك التي يجدونها في كتبهم لثلاث يحل بهم ما حل باخوانهم وسلفهم. وهذه القرية هي أيلة، وهي على شاطئ بحر القلزم ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ أي يعتدون فيه، ويخالفون أمر الله فيه لهم بالوصاية به إذ ذاك ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا﴾ أي ظاهرة على الماء ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ﴾ أي نختبرهم بإظهار السمك لهم على ظهر الماء في اليوم المحرم عليهم صيده، وإخفائها عنهم في اليوم الحلال لهم صيده ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ يقول: بفسقهم عن طاعة الله، وخروجهم عنها. وهؤلاء قوم احتالوا على انتهاك محارم الله بما تعاطوا من الأسباب الظاهرة التي معناها في الباطن تعاطي الحرام. وفي الحديث «لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل» إسناده جيد.

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِيَّا رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْقُوتُونَ﴾ ﴿١١٤﴾ .

يخبر تعالى عن أهل هذه القرية أنهم صاروا إلى ثلاث فرق: فرقة ارتكبت المحذور، واحتالوا على اصطياد السمك يوم السبت، وفرقة نهت عن ذلك واعتزلتهم، وفرقة سكتت فلم تفعل ولم تنه، ولكنها قالت للمنكرة: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أي لم تنهون هؤلاء، وقد علمتم أنهم هلكوا واستحقوا العقوبة من الله، فلا فائدة في نهيكهم إياهم. قالت لهم المنكرة ﴿مَعذِرَةٌ إِيَّا رَبِّكُمْ﴾ أي نفعل ذلك معذرة إلى ربكم، أي فيما أخذ علينا من الأمر بالمعروف والنهي عن

المنكر ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَنْقُوتُونَ﴾ يقولون: ولعل لهذا الإنكار يتقون ما هم فيه، ويتركونه ويرجعون إلى الله تائبين، فإذا تابوا تاب الله عليهم ورحمهم.

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (١٦٥).

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي فلما أبى الفاعلون قبول النصيحة ﴿أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي ارتكبوا المعصية ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ فنص على نجاة الناهين، وهلاك الظالمين، وسكت عن الساكطين، لأن الجزاء من جنس العمل، فهم لا يستحقون مدحاً فيمدحوا، ولا ارتكبوا عظيماً فيذموا، ومع هذا فقد اختلفت الأئمة فيهم: هل كانوا من الهالكين أو من الناجين؟ على قولين.

﴿فَلَمَّا عَوَّا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ (١٦٦).
﴿خَاسِئِينَ﴾ أي ذليلين حقيرين مهانين.

﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رِبْكُ لَبِئْتَنَ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ مَنْ يُسْأَلُ سَوْءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٦٧).

﴿تَأَذَّتْ﴾ تفعل من الأذان، أي أعلم، أو أمر، وفي قوة الكلام ما يفيد معنى القسم من هذه اللفظة، ولهذا أتبع باللام في قوله: ﴿لَبِئْتَنَ عَلَيْهِمْ﴾ أي على اليهود ﴿إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ مَنْ يُسْأَلُ سَوْءَ الْعَذَابِ﴾ أي بسبب عصيانهم، ومخالفتهم أوامر الله وشرعه، واحتيالهم على المحارم، ويقال: إن موسى عليه السلام ضرب عليهم الخراج سبع سنين، وقيل: ثلاث عشرة سنة ثم كانوا في قهر الملوك من اليونانيين والكشديانيين والكلدانيين، ثم صاروا إلى قهر النصارى وإذلالهم وأخذهم منهم الجزية والخراج، ثم جاء الإسلام ومحمد ﷺ فكانوا تحت قهره وذمته يؤدون الخراج والجزية، ثم آخر أمرهم أنهم يخرجون أنصاراً للرجال فيقتلهم المسلمون مع عيسى ابن مريم عليه السلام، وذلك آخر الزمان ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ أي لمن عصاه وخالف شرعه، ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي لمن تاب إليه وأناب. وهذا من باب قرن الرحمة مع العقوبة لئلا يحصل اليأس، فيقرن تعالى بين الترغيب والترهيب كثيراً، لتبقى النفوس بين الرجاء والخوف.

﴿وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (١٦٨).

يذكر تعالى أنه فرقهم في الأرض أُمَمًا، أي طوائف وفرقا ﴿مِّنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾ أي فيهم الصالح وغير ذلك، كقول الجن: ﴿وَأَنَا مِمَّنِ الصَّالِحُونَ وَمِمَّنْ دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قَدَدًا﴾ (الجن: 11)

﴿وَبَلَّغْنَاهُمْ﴾ أي اختبرناهم ﴿بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ أي بالرضا والشدة، والرغبة والرهبة، والعافية والبلاء ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَدْوِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ يَأْخُذُوا أَلَّا يَتَّخِذَ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالْذَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (١٦٩).

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَدْوِهِمْ خَلْفٌ...﴾ أي فخلف من بعد ذلك الجيل الذين فيهم الصالح والطالح خلف آخر، لا خير فيهم، وقد ورثوا دراسة الكتاب، وهو التوراة ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ أي يعتاضون عن بذل الحق ونشره بعرض الحياة الدنيا، ويسوفون أنفسهم، ويعدونها بالتوبة، وكلما لاح لهم مثل الأول وقعوا فيه، ولهذا قال: ﴿وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ يَأْخُذُوا﴾ وكما قال سعيد بن جبير: يعملون الذنب ثم يستغفرون الله منه، ويعترفون لله، فإن عرض ذلك الذنب أخذوه ﴿أَلَّا يَتَّخِذَ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ...﴾ يقول تعالى منكرًا عليهم في صنيعهم هذا مع ما أخذ عليهم من الميثاق ليبين الحق للناس ولا يكتُمونه وقوله تعالى: ﴿وَالْذَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ يرغبهم في جزيل ثوابه، ويحذرهم من وبيل عقابه، أي وثوابي وما عندي خير لمن اتقى المحارم، وترك هوى نفسه، وأقبل على طاعة ربه ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يقول: أفليس لهؤلاء الذين اعتاضوا بعرض الدنيا عما عندي عقل يردهم عما هم فيه من السفه والتبذير.

﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ (١٧٠).

ثم أثنى تعالى على من تمسك بكتابه الذي يقوده إلى اتباع رسوله محمد ﷺ كما هو مكتوب فيه فقل: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾ أي اعتصموا به، واقتدوا بأوامره، وتركوا زواجره ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾.

﴿وَإِذْ نَفَقْنَا الْجِبَلِ فَوْقَهُمْ كَانَهُمْ ظُلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَافِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٧١).

﴿وَإِذْ نَفَقْنَا الْجِبَلِ فَوْقَهُمْ﴾ رفعناه ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِثْقَلِهِمْ﴾ [النساء: 154] عن ابن عباس قال: ثم سار بهم موسى عليه السلام إلى الأرض المقدسة، وأخذ الألواح بعدما سكت عنه الغضب، وأمرهم بالذي أمر الله أن يبلغهم من الوظائف، فثقلت عليهم، وأبوا أن يقرأوا بها حتى نتق الله الجبل فوقهم ﴿كَانَهُمْ ظُلَّةٌ﴾ رفعته الملائكة فوق رؤوسهم، فلما نظروا إلى الجبل خر كل رجل ساجداً على حاجبه، ونظر بعينه اليمنى إلى الجبل فرقا من أن يسقط عليه.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ

شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾

يخبر تعالى أنه استخرج ذرية آدم من أصلاهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكمهم، وأنه لا إله إلا هو، كما أنه فطرهم على ذلك، وجبلهم عليه، قال تعالى ﴿فَأَقْوَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: 30] وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة». وفي رواية «على هذه الملة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تولد بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟» وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله: إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم». روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرايت لو كان لك ما في الأرض من شيء أكننت مفتدياً به؟» قال: فيقول: نعم، فيقول: قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا أن تشرك بي» أخرجه في الصحيحين من حديث شعبة. فالله سبحانه استخرج من ذرية آدم من أصلاهم شاهدين على أنفسهم، ولذلك قال: ﴿مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ﴾ [مریم: 58] ولم يقل من آدم، وقال: ﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾ ولم يقل من ظهره ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ أي أوجدتهم شاهدين بذلك، قائلين له حالاً، والشهادة تارة تكون بالقول كقوله: ﴿قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا﴾ [الأنعام: 130] وتارة تكون حالاً كقوله: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ﴾ [التوبة: 17] أي حالهم شاهد عليهم بذلك، لا أنهم قائلون ذلك. فالمراد بهذا الإشهاد أنه إنما فطرهم على التوحيد، ومما يدل على ذلك أن الله جعل هذا الإشهاد حجة عليهم في الإشراك، فلو كان قد وقع هذا الإشهاد بالفعل لكان كل أحد يذكره، ليكون حجة عليه، فإن قيل: إخبار الرسول به كان في وجوده فالجواب أن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءتهم به الرسل من هذا وغيره، وهذا جعل حجة مستقلة عليهم فدل على أنه الفطرة التي فطروا عليها من الإقرار بالتوحيد، ولهذا قال: ﴿أَنْتَ تَقُولُوا﴾ أي لثلاث تقولوا يوم القيامة ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ أي التوحيد.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ ﴿١٧٥﴾

عن عبد الله بن مسعود: هو رجل من بني إسرائيل، يقال له: بلعم بن باعوراء، وعن عبد الله بن عمرو: هو أمية بن أبي الصلت، وعن ابن عباس: هو رجل أعطي ثلاث دعوات يستجاب له فيهن

﴿فَأَسْلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ أي استحوذ عليه وعلى أمره، فمهما أمره امتثل وأطاعه، ولهذا قال: ﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ أي من الهالكين الحائرين البائسين.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحَمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثَ أَوْ تَرَكَهٗ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ من التدنس عن قاذورات الدنيا بالآيات التي آتيناه إياها ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أي مال إلى زينة الحياة الدنيا وزهرتها، وأقبل على لذاتها ونعيمها، وغرته كما غرت غيره من غير أولي البصائر والنهي ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي لعل بني إسرائيل العالمين بحال بلعم، وما جرى له في إضلال الله إياه، وإبعاده من رحمته ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي فيحذروا أن يكونوا مثله، فإن الله قد أعطاهم علماً وميزهم على من عداهم من الأعراب، وجعل بأيديهم صفة محمد ﷺ، يعرفونها كما يعرفون أبناءهم، فهم أحق الناس وأولاهم باتباعه ومناصرتة وموازرتة، كما أخبرتهم أنبيأؤهم بذلك وأمرتهم به، ولهذا من خالف منهم ما في كتابه وكتبه فلم يعلم به العباد أحل الله به ذلاً في الدنيا موصولاً بذل الآخرة.

﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾.

﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي ساء مثلهم أن شبهوا بالكلاب التي لا همة لها إلا في تحصيل أكلة أو شهوة، فمن خرج عن حيز العلم والهدى، وأقبل على شهوة نفسه، واتباع هواه صار شبيهاً بالكلب، وبش المثل مثله، ولهذا ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «ليس لنا مثل السوء، العائد في هبته كالكلب يعود في قيئه». وقوله: ﴿وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ أي ما ظلمهم الله، ولكن هم ظلموا أنفسهم بإعراضهم عن اتباع الهدى، وطاعة المولى، إلى الركون إلى دار البلى، وإقبال على تحصيل اللذات، وموافقة الهوى.

﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِىٌّ وَمَنْ يُضِلِّلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾.

يقول تعالى: من هداه الله، فإنه لا مضل له، ومن أضله فقد خاب وخسر، وضل لا محالة، فإنه تعالى ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ولهذا جاء في حديث ابن مسعود: «إن الحمد لله نحمده، ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله».

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ أي خلقنا وجعلنا لجهنم. ﴿كَثِيرًا مِّنَ الْإِنسِ﴾ أي هيأناهم لها، ويعمل أهلها يعملون، فإنه تعالى لما أراد أن يخلق الخلق علم ما هم عاملون قبل كونهم، فكتب ذلك عنده في كتاب قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، كما ورد في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله قدر مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء». وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: دعي النبي ﷺ إلى جنازة صبي من الأنصار، فقلت: يا رسول الله، طوبى له عصفور من عصافير الجنة، لم يعمل السوء ولم يدركه. فقال رسول الله ﷺ: «أو غير ذلك يا عائشة، إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلاً، وهم في أصلاب آبائهم، وخلق النار، وخلق لها أهلاً، وهم في أصلاب آبائهم». وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود: «ثم يبعث الله إليه الملك، فيؤمر بأربع كلمات، فيكتب رزقه وأجله وعمله، وشقي أم سعيد» ولما استخرج ذرية آدم من صلبه، وجعلهم فريقين: أصحاب اليمين، وأصحاب الشمال قال: «هؤلاء للجنة ولا أبالي، وهؤلاء للنار ولا أبالي». وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا...﴾ يعني ليس ينتفعون بشيء من هذه الجوارح التي جعلها الله سبباً للهداية. وقوله: ﴿أُولَئِكَ كَانُوا فِيهَا سَاهِبِينَ﴾ أي هؤلاء الذين لا يسمعون الحق ولا يعونه، ولا يبصرون الهدى كالأنعام السارحة التي لا تنتفع بهذه الحواس منها إلا في الذي يقيتها في ظاهر الحياة الدنيا ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ أي من الدواب، لأنها قد تستجيب مع ذلك لراعيها إذا أيس بها، وإن لم تفقه كلامه، بخلاف هؤلاء، ولأنها تفعل ما خلقت له، إما بطبعها، وإما بتسخيرها، بخلاف الكافر، فإنه إنما خلق ليعبد الله، ويوحده، فكفر بالله وأشرك به، ولهذا من أطاع الله من البشر كان أشرف من مثله من الملائكة في معاده، ومن كفر به من البشر كانت الدواب أتم منه ﴿أُولَئِكَ كَانُوا فِيهَا سَاهِبِينَ﴾.

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٨١).

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله تسعاً وتسعين اسماً: مائة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر» أخرجاه في الصحيحين. «هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافض الرافع المعز المذل السميع البصير الحكم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور العلي الكبير الحفيظ المقيت الحسيب الجليل الكريم الرقيب الواسع الحكم الودود المجيد الباعث الشهيد الحق الوكيل القوي المتين الولي الحميد المحصي المبدئ المعيد المحيي المميت الحي القيوم الواجد الماجد الواحد الأحد الفرد الصمد القادر المقدر المؤخر الأول الآخر الظاهر الباطن الوالي المتعالي البر التواب

المنتقم العفو الرؤوف مالك الملك ذو الجلال والإكرام المقسط الجامع الغني المغني المانع الضار النافع النور الهادي البديع الباقي الوارث الرشيد الصبور» رواه الترمذي وقوله: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يَلْحَدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ إلحاد الملحدين أن دعوا اللات في أسماء الله، اشتقوا اللات من الله، والعزى من العزيز، قال قتادة يلحدون: يشركون في أسمائه، وأصل الإلحاد في كلام العرب العدول عن القصد، والميل والجور والانحراف، ومنه اللحد في القبر لانحرافه إلى جهة القبلة عن سمت الحفر.

﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ (١٨١).

﴿وَمَنْ خَلَقْنَا﴾ أي بعض الأمم ﴿أُمَّةً﴾ قائمة بالحق قولاً وعملاً ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ يقولونه ويدعون إليه ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ يعملون ويقضون، والأمة هنا هي الأمة المحمدية. وفي الحديث «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم حتى تقوم الساعة» وفي رواية: «حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك».

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْدَرُجَهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٨٢).

ومعناه أنه يفتح أبواب الرزق، ووجوه المعاش في الدنيا حتى يغتروا بما هم فيه، ويعتقدوا أنهم على شيء.

﴿وَأُمْلِ لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ (١٨٣).

وهذا قال: ﴿وَأُمْلِ لَهُمْ﴾ أي وسأمل لهم أي أطول لهم ما هم فيه ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ أي قوي شديد.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ حِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (١٨٤).

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ هؤلاء المكذبون بآياتنا ﴿مَا بِصَاحِبِهِمْ﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿مِنْ حِنَّةٍ﴾ أي ليس به حنون بل هو رسول الله حقاً، دعا إلى حق ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أي ظاهر لمن كان له لب، وقلب يعقل به، ويعي به كما قال تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ (الكهف: 22) قال قتادة بن دعامة: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان على الصفا فدعا قريشاً فجعل يفخذهم فخذاً فخذاً يا بني فلان، يا بني فلان، فحذرهم بأس الله، ووقائع الله، فقال قائلهم: إن صاحبكم هذا لمجنون، بات يصوت إلى الصباح، أو حتى الصباح فأنزل الله ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ حِنَّةٍ...﴾.

﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ

أَجَلُهُمْ فَإِذَا هِيَ صَاغِيَةٌ يَوْمُئِذٍ﴾ (١٨٥).

أولم ينظر هؤلاء المكذبون بآياتنا في ملك الله وسلطانه في السموات والأرض، وفيما خلق من شيء

فيهما فيتدبروا ذلك، ويعتبروا به، ويعلموا أن ذلك لمن لا نظير له، ولا شبيه، ومن فعل من لا ينبغي أن تكون العبادة والدين الخالص إلا له، فيؤمنوا به، ويصدقوا رسوله، وينبوا إلى طاعته، ويخلصوا الأنناد والأوثان، ويحذروا أن تكون آجالهم قد اقتربت فيهلكوا على كفرهم، ويصبروا إلى عذاب الله وأليم عقابه. وقوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدُ يُؤْمِنُونَ﴾ يقول: فبأي تخويف وتحذير وترهيب بعد تحذير محمد ﷺ وترهيبه الذي أتاهم به من عند الله في أي كتابه يصدقون إن لم يصدقوا بهذا الحديث الذي جاءهم به محمد من عند الله عز وجل؟.

﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَأَنَّهُ هَادٍ لَمْ يَزَلْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (٧٨).

يقول تعالى: من كتب عليه الضلالة فإنه لا يهديه أحد، ولو نظر لنفسه فيما نظر فإنه لا يجزي عنه شيئاً ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً﴾ [المائدة: 41] وكما قال تعالى: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: 101].

﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ يُفَلِّتُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً يَسْتَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٧٩).

قيل: نزلت في قريش وقيل: في نفر من اليهود، والأول أشبه، لأن الآية مكية، وكانوا يسألون عن وقت الساعة استبعاداً لوقوعها، وتكديماً بوجودها وقوله: ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ أي متى محطها ومنتهاها، وآخر مدة الدنيا الذي هو أول وقت الساعة ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ﴾ أمر تعالى رسوله ﷺ إذا سئل عن وقت الساعة أن يرد علمها إلى الله تعالى، فإنه هو الذي يجليها لوقتها، أي يعلم جلية أمرها، ومتى يكون على التحديد، أو إذا جاءت ثقلت على أهل السموات والأرض، يقول: كبرت عليهم، أوليس شيء من الخلق إلا يصيبه من ضرر يوم القيامة، أو إذا جاءت انشقت السماء، وانتشرت النجوم، وكورت الشمس، وسيرت الجبال، وكان ما قال الله عز وجل، فذلك ثقلها ﴿لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً﴾ يبعثهم قيامها، تأتيتهم على غفلة، وفي الحديث «إن الساعة تهيج بالناس، والرجل يصلح حوضه، والرجل يسقي ماشيته، والرجل يقيم سلعته في السوق، ويخفض ميزانه ويرفعه». وقوله: ﴿يَسْتَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ يقول: كأن بينك وبينهم مودة، كأنك صديق لهم، قال ابن عباس لما سأل الناس النبي ﷺ سألوه سؤال قوم كأنهم يرون أن محمداً حفي بهم فأوحى الله إليه إنما علمها عنده، استأثر به فلم يطلع الله عليها ملكاً مقرباً ولا رسولاً، أو كأنك عالم بها، لست تعلمها، إنما علمها عند الله.

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْنَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٨٠).

أمره تعالى أن يفوض الأمور إليه، وأن يخبر عن نفسه أنه لا يعلم الغيب المستقبل، ولا اطلاع له على شيء من ذلك إلا بما أطلعه الله عليه، كما قال تعالى: ﴿عَلِمَ الْغَيْبُ فَلَا يَظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ۖ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ﴾ [الجن: 26، 27] وقوله: ﴿وَلَوْ كُنْتَ أَعْلَمَ الْغَيْبُ لَاسْتَكْثَرْتَ مِنَ الْغَيْرِ﴾ [الاعراف: 188] أي لو كنت أعلم متى أموت لعملت عملاً صالحاً، وفي هذا الكلام نظر، لأن عمل رسول الله ﷺ كان ديمة، وفي رواية كان إذا عمل عملاً أثبتته، فجميع عمله كان على منوال واحد، كأنه ينظر إلى الله عز وجل في جميع أحواله، اللهم إلا أن يكون المراد أن يرشد غيره إلى الاستعداد لذلك، والأحسن في هذا ما رواه الضحاك عن ابن عباس، أي لاستكثرت من المال، وفي رواية لعلمت إذا اشترت شيئاً ماذا أربح فيه، فلا أبيع شيئاً إلا ربحت فيه، ولا يصيبني الفقر ﴿وَمَا مَسْنَىٰ الشُّوْءِ﴾ قال: لاجتنب ما يكون من الشر قبل أن يكون واقفته، ثم أخبر أنه نذير من العذاب، ويشير للمؤمنين بالجنات كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسْتَرْزُقُهُ بِلسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدُنَّا ۖ﴾ [مريم: 97].

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَبِيحًا وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأنبياء: ١٨٩].

ينبه تعالى على أنه خلق الناس من آدم ﷺ، وأنه خلق منه زوجته حواء، ثم انتشر الناس منهما كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [لقمان: 13] ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ أي ليألفها ويسكن بها كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: 21] فلا ألفة بين روحين أعظم مما بين الزوجين، ولهذا ذكر تعالى أن الساحر ربما توصل بكيدته إلى التفرقة بين السراء وزوجه ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ أي وطئها ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا﴾ وذلك أول الحمل، لا تجد المرأة له الساء، إنما هي النطفة ثم العلقه ثم المضغة وقوله: ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ استمرت بحمله، أو استخفته، أو استبان حملها ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَتْ﴾ أي صارت ذات ثقل بحملها، أو كبر الولد في بطنها ﴿دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَبِيحًا﴾ أي بشراً سوياً، أو أشفقاً أن يكون بهيمة، أو أشفقاً أن لا يكون إنساناً، أو لئن آتيتنا غلاماً ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾.

﴿فَلَمَّا ءَاتَاهُمَا صَبِيحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا فَفَعَلَىٰ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩٠].

﴿فَلَمَّا ءَاتَاهُمَا صَبِيحًا جَعَلَا...﴾ وقد جاء عن كثير من التابعين آثار مفادها أن حواء لما حملت أتاها الشيطان فقال: إني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة لتطيعاني، أو لأجعلن له قرني إيل فيخرج من بطنك فيشقه، ولأفعلن ولأفعلن يخوفهما، فسمياه عبد الحارث فأبيا أن يطيعاه فخرج ميتاً، ثم

حملت الثانية فأتاهما أيضاً فقال: صاحبكما الذي فعلت ما فعلت، لتفعلن أو لأفعلن يخوفهما فأبيا أن يطيعاه فخرج ميتاً، ثم حملت الثالثة فأتاهما أيضاً فذكر لهما فأدركهما حب الولد فسمياه عبد الحارث فذلك قوله تعالى: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا﴾ ولكن هذه الآثار يظهر عليها والله أعلم أنها من آثار أهل الكتاب، وأخبارهم على ثلاثة أقسام، فمنها ما علمنا صحته بما دل عليه الدليل من كتاب الله أو سنة رسوله، ومنها ما علمنا كذبه بما دل على خلافه من الكتاب والسنة أيضاً، ومنها ما هو مسكوت عنه المأذون في روايته بقوله ﷺ: «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج» وهو الذي لا يصدق ولا يكذب لقوله: «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم»، وهذا الأثر هو من القسم الثاني، فأما من حدث به من صحابي أو تابعي فإنه يراه من القسم الثالث، وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصري رحمه الله أن المراد به ذرية آدم ومن أشرك منهم بعده، وليس المراد آدم وحواء، ولهذا قال: قال الله ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فذكر آدم وحواء أولاً كالتوطئة لما بعدهما من الوالدين، وهو كالاستطراد من ذكر الشخص إلى ذكر الجنس.

﴿أَبْشِرْ كُونَ مَا لَا يُخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾ (١٩١).

هذا إنكار من الله على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأنداد والأصنام والأوثان، وهي مخلوقة لله مربوبة مصنوعة، لا تملك شيئاً من الأمر ولا تضر، ولا تنفع ولا تبصر ولا تتصور لعابديها، بل هي جناد لا تتحرك، ولا تسمع ولا تبصر، وعابدوها أكمل فيها بسمعهم وبصرهم وبطشهم، ولهذا قال: ﴿أَبْشِرْ كُونَ مَا لَا يُخْلُقُ...﴾ أي أبشركون به من المعبودات ما لا يخلق شيئاً، ولا يستطيع ذلك، بل هم مخلوقون مصنوعون.

﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَمْ نَصِّرْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ (١٩٢).

﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَمْ نَصِّرْ﴾ أي لعابديهم ﴿وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ يعني ولا لأنفسهم ينصرون ممن أرادهم بسوء.

﴿وَإِنْ نَدَعُوهُمْ إِلَىٰ الْمُدَىٰ لَا يَتَّبِعُكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَائِمُونَ﴾ (١٩٣) **إِنَّ الَّذِينَ نَدَعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَثْنَالِكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** (١٩٤).

يعني أن هذه الأصنام لا تسمع دعاء من دعاها، وسواء لديها من دعاها ومن دحاها.

﴿أَلَهُمْ أَزْجُلُ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يَبْصُرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظَرُونَ﴾ (١٩٥).

ثم ذكر تعالى أنها عبيد مثل عابديها، أي مخلوقات مثلهم، بل الأناس أكمل منها، لأنها تسمع وتبصر وتبش، وتلك لا تفعل شيئاً من ذلك. وقوله: ﴿قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ...﴾ أي استنصروا بها علي، فلا تؤخروني طرفة عين، واجهدوا جهدكم.

﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ (١٩٦).

﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ...﴾ أي الله حسبي وكافيني، وهو نصيري، وعليه متكلي، وإليه الجأ، وهو وليي في الدنيا والآخرة، وهو ولي كل صالح بعدي.

﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ (١٩٧).

﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ...﴾ هذا مؤكد لما تقدم إلا أنه بصيغة الخطاب، وذاك بصيغة الغيبة، ولهذا قال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾.

﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرْكِبُهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (١٩٨).

﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا...﴾ كقوله تعالى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكِكُمْ وَلَا يَنْتَفِكُ مِنْكُمْ خَيْرٌ﴾ [فاطر: 14] وقوله: ﴿وَتَرْكِبُهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ إنما قال: ﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ أي يقابلونك بعيون مصورة، كأنها ناظرة، وهي جماد، ولهذا عاملهم معاملة من يعقل لأنها على صور مصورة كالإنسان.

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (١٩٩).

﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ يعني خذ ما عفا لك من أموالهم، وما أتوك به من شيء فخذ، وكان هذا قبل أن تنزل «براءة» بفرائض الصدقات وتفصيلها، وما انتهت إليه الصدقات، وقيل: أنفق الفضل، وقيل: أمره الله بالعفو والصفح عن المشركين عشر سنين، ثم أمره بالغلظة عليهم. روى ابن جرير وابن أبي حنم عن أبي قال: لما أنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ ﴿خُذِ الْعَفْوَ...﴾ قال رسول الله ﷺ: «ما هذا يا جبريل؟» قال: «إن الله أمرك أن تعفو عمن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك». قال البخاري: العرف: المعروف، وروي عن ابن عباس قال: قدم عيينة بن حصن فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس، وكان من النفر الذين يدينهم عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمر كهولاً أو شائناً، فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي، لك وجه عند هذا الأمير، فاستأذن لي عليه، قال: سأستأذن لك عليه، قال ابن عباس: فاستأذن الحر لعيينة فأذن له عمر، فلما دخل عليه قال: هي يا ابن الخطاب، فوالله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر حتى هم أن يوقع به، فقال الحر: يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ...﴾ وإن هذا من الجاهلين، والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقافاً عند كتابه عز وجل، انفرد باخراجه البخاري. قال ابن جرير وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يأمر عباده بالمعروف، ويدخل في ذلك جميع الطاعات، وبالإعراض عن الجاهلين، وذلك وإن كان أمراً لنبيه ﷺ فإنه تأديب لخلقه باحتمال من ظلمهم واعتدى عليهم، لا بالإعراض عن جهل الحق الواجب من حق الله ولا بالصفح عمن كفر بالله، وجهل وحدانيته، وهو للمسلمين حرب.

﴿وَأِمَّا يَرِغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٠٠).

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لما نزلت ﴿خُذِ الْقَوَاعِدَ وَالْمُرَّ بِالْعَرَفِ...﴾ قال: يا رب كيف بالغضب؟ فأنزل الله ﴿وَأِمَّا يَرِغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ...﴾ وقد تساب رجلان بحضرة النبي ﷺ فغضب أحدهما حتى جعل أنفه يتمزج غضباً، فقال رسول الله ﷺ: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» فقبل له، فقال: ما لي من جنون. وأصل النزغ الفساد، إما بالغضب أو غيره. والعياذ: الالتجاء والاستنجاد والاستجارة من الشر، وأما الملاذ ففي طلب الخير.

﴿إِنَّكَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَافٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكُّرٌ فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ (٢٠١).

يخبر تعالى عن المتقين من عباده الذين أطاعوه فيما أمر، وتركوا ما عنه زجر ﴿إِذَا مَسَّهُمْ﴾ أي أصابهم ﴿طَافٌ﴾ غضب، أو مس من الشيطان بالصرع ونحوه، أو إذا أصابوا ذنباً ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ أي قد استقاموا وصحوا مما كانوا فيه.

﴿وَأَخْوَاهُمْ يَمْدُونَهُمْ فِي الْغَى ثُمَّ لَا يَقْصِرُونَ﴾ (٢٠٢).

يعني أن الشياطين يمدون أولياءهم من الانس، ولا تسأم من امدادهم في الشر، لأن ذلك طبيعة لهم وسجية. ﴿لَا يَقْصِرُونَ﴾ لا تفر ولا تبطل عنه.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٠٣).

﴿قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ لولا أخذتها أنت فجئت بها من السماء، والآية المعجزة والخارق كقوله: ﴿إِنْ شَاءَ نَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً...﴾ [الشعراء: 4] ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي﴾ أي أنا لا أتقدم إليه تعالى في شيء، وإنما أتبع ما أمرني به فأمثل ما يوحى إلي، فإن بعث آية قبلتها، وإن منعها لم أسأله ابتداء إياها إلا أن يأذن لي في ذلك فإنه حكيم عليم، ثم أرشدهم إلى أن هذا القرآن هو أعظم المعجزات وأبين الدلالات وأصدق الحجج والبيّنات فقال: ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِنْ...﴾.

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٢٠٤).

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ...﴾ لما ذكر تعالى أن القرآن بصائر للناس وهدى ورحمة أمر تعالى بالإنصات عند تلاوته إعظاماً له واحتراماً، لا كما كان يتعمده كفار قريش المشركون في قولهم ﴿لَا تَسْمَعُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْقَوَاعِدَ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تُعْلَمُونَ﴾ [نصفت: 26]، ولكن يتأكد ذلك في الصلاة المكتوبة إذا جهر الإمام بالقراءة كما رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما جعل الإمام ليؤتم به، فإذا كبر فكبروا، وإذا قرأ فأنصتوا». وروى ابن جرير

قال: صلى ابن مسعود فسمع ناساً يقرؤون مع الإمام، فلما انصرف قال: أما أن لكم أن تفهموا، أما أن لكم أن تعقلوا؟ ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ كما أمركم الله. وهذا مذهب طائفة من العلماء أن المأموم لا يجب عليه في الصلاة الجهرية قراءة فيما جهر فيه الإمام، لا الفاتحة ولا غيرها، وهو أحد قولي الشافعية، وهو القديم كمذهب مالك، ورواية عن أحمد بن حنبل لما ذكرناه من الأدلة، وقال في الجديد: يقرأ الفاتحة فقط في سكتات الإمام، وهو قول طائفة من الصحابة والتابعين فمن بعدهم، وقال أبو حنيفة وأحمد بن حنبل: لا يجب على المأموم قراءة أصلاً في السرية ولا الجهرية بما ورد من حديث «من كان له إمام فقراءته قراءة له» وهذا الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده عن جابر مرفوعاً، وهو في موطأ مالك، واختار البخاري وجوب القراءة خلف الإمام في السرية، والجهرية أيضاً. وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من استمع إلى آية من كتاب الله كتبت له حسنة مضاعفة، ومن تلاها كانت له نوراً يوم القيامة».

﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ (٢٠٥).

يأمر تعالى بذكره أول النهار، وآخره كثيراً كما أمر بعبادته في هذين الوقتين في قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: 130] وقد كان هذا قبل أن تفرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء، وهذه الآية مكية، وقال هنا: ﴿بِالْغُدُوِّ﴾ وهو أول النهار ﴿وَالْآصَالِ﴾ جمع أصيل، كما أن الإيمان جمع يمين. وأما قوله: ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ أي اذكر ربك في نفسك رغبة ورهبة، وبالقول، لا جهرًا، ولهذا قال: ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ وهكذا يستحب أن يكون الذكر، لا يكون نداء وجهرًا بليغًا، ولهذا لما سألوا رسول الله ﷺ فقالوا: أقرب ربنا فتناجيه، أم بعيد فنناديه؟ فأنزل الله عز وجل ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: 186] وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: رفع الناس أصواتهم بالدعاء في بعض الأسفار فقال لهم النبي ﷺ: «يا أيها الناس اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا، إن الذي تدعونه سميع قريب، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»، وقد يكون المراد من هذه الآية أن المشركين إذا سمعوا القرآن سبوه وسبوا من أنزله وسبوا من جاء به، فأمره الله تعالى أن لا يجهر به لئلا ينال منه المشركون، ولا يخافت به عن أصحابه فلا يسمعونهم، وليتخذ سبيلًا بين الجهر والاسرار. والمراد من الآية الحض على كثرة الذكر من العباد بالغدو والآصال، لئلا يكونوا من الغافلين. وليس المراد كما زعم ابن جرير، وقبله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أن المراد بها أمر السامع للقرآن في حال استماعه بالذكر على هذه الصفة، وهذا بعيد منافٍ للانصات للمأمور به. ولذلك مدح الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ (١٦).

﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ إنما ذكرهم بهذا ليقنّدي بهم في كثرة طاعتهم وعبادتهم، ولهذا شرع لنا السجود ههنا، لما ذكر سجودهم لله عز وجل، كما جاء في الحديث «ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها، يتمون الصفوف الأول فالأول، ويتراصون في الصف». وهذه أول سجدة في القرآن يشرع لتاليها ومستمعها السجود بالإجماع.

تفسير سُورَةُ الْاَنْفَالِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَسْتُلْزِمُكَ عَنِ الْاَنْفَالِ قُلُ الْاَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١).

الأنفال المغنم. نزلت في بدر، وعن ابن عباس قال: الأنفال الغنائم كانت لرسول الله ﷺ خالصة، ليس لأحد منها شيء، فقسمها رسول الله ﷺ بين المسلمين ﴿فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أي اتقوا الله في أموركم، وأصلحوا فيما بينكم، ولا تظالموا ولا تخاصموا، ولا تشاجروا، فما آتاكم الله من الهدى والعلم خير مما تختصمون بسببه ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي في قسمة نبيكم على ما أَرَادَهُ اللهُ، فإنما يقسمه كما أمره الله من العدل والإنصاف.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٢).

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ...﴾ عن ابن عباس قال: المنافقون لا يدخل قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه، ولا يؤمنون بشيء من آيات الله، ولا يتوكلون، ولا يصلون إذا غابوا، ولا يؤدون زكاة أموالهم، فأخبر الله تعالى أنهم ليسوا بمؤمنين، ثم وصف الله المؤمنين فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فادوا فرائضه ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ يقول: زادتهم تصديقاً. وقال مجاهد ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فرقت، أي فزعت وخافت. ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي لا يرجون سواه، ولا يقصدون إلا إياه، ولا يلوذون إلا بجنابه، ولا يطلبون الحوائج إلا منه، ولا يرغبون إلا إليه، ويعلمون أنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف في الملك وحده لا شريك له، ولا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب.